



إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ



تفسير

الْباقرة والمجادل والنور

الميسر



- عنوان الكتاب: بذور الرشد، تفسير سور: الحاقة، المعارج، نوح الميسر
- اسم المؤلف: د. محمد باباعمي
- الطبعة الأولى: 1442 هـ - 2021 م
- مقاس الكتاب: 125 × 190
- عدد الصفحات: 192
- ردمك: ISBN 978-9931-735-12-0
- الإيداع القانوني: السداسي الأول، 2021.

محموظة  
جميع حقوق

Copyright © 2021 Kitabook



Kitabook.net





تفسير

الحائِز والمُعَالِجُ وَنُوحٌ

المُيسِّر

محمد باباعمي



## بنيّة العمل

لا يعنيني في شيء أن أفسّر القرآن الكريم، فقد فسّره علماء كرام؛  
ولكنني أحيا به ومعه، ثم أتخذُه منطلقا لفكري، وصبغة لفعلي...  
في رحلة العمر، وقد جاوزت الخمسين حجّة؛  
وهي مرحلة لا أرجو معها ولا بعدها إلاّ معية الله **جَلَّ جَلَالُهُ**،  
وصحبة كلامه، وكنف رحمته ورضاه؛  
أسأله سبحانه صلاح أمر أمّتي، وأن يفرج عنها،  
ويظهر دينه على سائر الأديان،  
وأدعوه أن يصحح بكلامه الحكيم انحراف البشرية  
الفكري والثقافي والحضاري،  
وأن يسخرنا في إطار «نموذج الرشد»،  
وبالاستعانة بـ«بذور الرشد»، لهذا السبيل،  
أشهدُ الله أن ليس لي في الدنيا أمنية، إلا أن يجتمع عدد من العلماء،  
فيجتهدون في علوم القرآن والتفسير، وعلوم المعنى والتزليل؛ بعقل  
جمعيّ، داخل مراكز بحثية دائمة؛ تنفق فيها أموال أثرياء الأمة،  
وتسخر لها سلطة تحميها، وتجند لها سواعد وعقول  
خيرة علماء هذه الأمة...  
لنحقق بذلك نقلة حضارية توحيدية، نبتغي ذخرها عند الله تعالى  
وما بين يدي القارئ الحبيب هو صورة لهذا المعنى،  
وهو ظل لتلك النية، في انتظار تحقيق المطلوب، وبلوغ المرغوب  
اللَّهُمَّ فاشهد، وبلغ المقصود



### فريق العمل

- الأمانة والتنسيق: أ. جابر ناصر بوحجّام
- الإشراف الفني: أ. جابر باباعمي
- التصميم والتنفيذ الفني: أ. ياسين بوشارب
- متابعة النشر والطباعة: أ. محمد الحاج سعيد
- المراجعون: د. بشير قادرة
- د. حمو الشيهاني
- أ. جابر ناصر بوحجّام



## مقاصد تفسير الرشد

- تحبيب كلام الله تعالى للناس بعامة، وللناشئة والشباب بخاصة.
- عرضُ التفسير في صورةٍ غير منقّرة لمن لم يألّف مطالعة المجلدات.
- الوصول بكلام الله تعالى في حياتنا اليومية إلى حال التمثُّل والتناغم، بعيدا عن حال التكلف والانفصام.
- الخروج من دائرة الاختلاف في الأصول وتخطئة الآخر؛ إلى سعة المعاني المتفق عليها، والتي تمثل أصل الدين ولبه؛ مع اعتبار الأوجه التي تؤشر إلى رحابة الدين، والتي تمثل الفروع، الجائز الاختلاف فيها.
- اعتماد مصادر التفسير كلّها: من سنة نبوية، وآثارٍ عن الصحابة، وأقوال للتابعين، وتفسير من بعدهم عبر القرون؛ بعيدا عن جفاء القطيعة.
- الإسهام في تحذير الناس من الجرأة على كلام الله، والتقول على الله تعالى بما لم يقل.
- اعتبار اللغة مصدرا أساسا لفهم الآية القرآنية؛ لكنه غير كافٍ لوحده.

- توظيف الجملة ووحدة معيارية للفهم بديلا عن النص المسترسل الطويل؛ وذلك استفادة من منهج القرآن الكريم في اتخاذ الآية وحدة معيارية لبنية المعنى.
- استشارة العمل بعد فهم الآية القرآنية، ذلك أنّ الغرض من كلام الله تعالى هو «الامتثال والتمثل» لا مجرد الحفظ والأداء والفهم.
- الدعوة إلى إعمال العقل الجماعي في إنجاز مشاريع لا حصر لها، من مداخل معرفية متجاوزة للتخصص، في فهم كلام الله تعالى.
- الدفاع عن الفهم المطيافي، الذي أسسنا له منذ عقدين من الزمان «المبني على اعتماد الموشور المعرفي، المكوّن من عقول متباينة، وتخصّصات مختلفة، وحالات ونماذج معرفية متعددة... للوصول إلى فهم ديناميكي حركي للآية القرآنية».
- تحريك مراحل تحويل المعلومة إلى سلوك، من خلال بذور الرشد: السؤال، الافتراض، الرؤية الكونية، القاعدة الكلية، الصورة الإدراكية، مخطط الفعل، الفعل الحضاري.



## بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ مقدمة

وإنه لحقُّ اليقين:

في زمن ضمُر فيه المعنى، وهُمَّش التاريخ، ونُصب العداء على كلِّ ما هو إنسانيٌّ، وعُبِدَ كلُّ ما هو ماديٌّ؛ واستبدلَ العلم الرسميُّ بالأنبياء أدعياءَ لثام...

في مثل هذا الزمن الصعب؛ لا بدَّ من العودة إلى تجربة الأمم السابقة، والنظر في أسباب السقوط والقيام، واستجلاء محاسن الظعن والمُقام...

ذلك أنَّ التاريخ لا يُعيد نفسه (بل التاريخ يشبه نفسه)، وأنَّ الزمن لا يعود القهقري، وأنَّ الأحداث لا تتكرَّر، ولا أحد من بني البشر فرادى، أو من الأمم جماعات، يظهر على «مسرح التاريخ، ونهر الزمن» - من لدن آدم إلى قيام الساعة - مرَّتين؛ ولا أحد من الناس يدَّعي القدرة على أن يعيش حياتين في آن واحدٍ، ولا أن يتقمَّصَ نفسين نحو مصير واحد.

لكلِّ هذه المعاني، ولأكثر منها، حرصت السور الثلاث (الحاقة، والمعارج، ونوح) على شدِّ انتباهنا إلى الأمم السابقة التي حاق بها العذاب (ثمود، وعاد، وفرعون، والموتفكات قوم

لو ط، وقوم نوح...، ثم لا مفرّ من قراءة التجربة الخالدة للأنبياء جميعاً، ومنهم أبو الأنبياء نوح عَلَيْهِ السَّلَام؛ وعلى سَنامهم، وخاتمة لهم، رسول الله ﷺ في معاناته مع قومه (كفّار قريش)، وكيف رموه بكل داء مُهين، واتهموه بكل عيبٍ مشين.

لا بدّ من قراءة متأنية لهذه الحقب من عمر البشرية، ولا مصدر لها سوى كلام الله تعالى؛ ذلك أنّ غيره من مصادر التاريخ، لا يعدو أن يكون «سجلات للأحداث»، و«دفاتر للآثار»، و«تواريخ مختلف فيها غالباً»، و«أسماء لملوك وغزاة»، و«سردا للأماكن والوقائع والجغرافيات»، و«تتبعاً للحروب والغزوات»... أمّا القرآن الكريم، فيدقق الخبر، ويسجّل العبر؛ ويعتني بأدق التفاصيل والجزئيات، كما يرسم القوانين والسنن الكونية التي تحكم سير البشرية في الكليات... ذلك أنّ الذي أنزله، هو ربّ الناس، وهو العليم بهم سبحانه وهو القائل: ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

وإنّ العقل ليحار من الجمع بين الماضي والحاضر والمستقبل في كلام الله بعامّة؛ والسورُ الثلاث مثلاً ونموذج؛ ذلك أنّ تفاصيل يوم القيامة، يوم ينقسم الناس إلى سعداء من ﴿أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾، وأشقياء من ﴿أَصْحَابِ الشَّمَالِ﴾؛ تأتي متناسقة مع تفاصيل عن «تاريخ النبوات» و«تاريخ تكذيب النبوات»؛ ويتخلل ذلك أوامر الله تعالى في الأنفس والآفاق؛

ولا يحسُّ التالي لكتاب الله الكريم باهتزاز الانتقال؛ ولا بتقطع الأنفاس في «الإيقاع» و«السياق»؛ فالمعاني تتوارد، والمباني تتعاضد؛ يخدم بعضها بعضاً؛ لتقرَّ حقيقة واحدة، وهي القول عن القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُ لِحَقِّ الْيَقِينِ﴾، و﴿إِنَّهُ لَتَذَكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾، و﴿إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وليس أبلغ في إدراك الصواب، ولا أوفر أجرا ليوام المآب؛ من استقبال هذا الحق بالذكر والتسبيح: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾...

\*\*\*

هلوعاً، جزوعاً، منوعاً... إلأ...

النفس جموحٌ حرون؛ تُسلس لك القيادة تارة، ثم تُحكَم منك اللجام أخرى:

أحياناً تصير طوع إرادتها وقهرها مسخراً، لا تملك قبولا ولا رفضاً، ولا تقدر قولاً ولا فعلاً؛

ثم أحياناً أخرى تقهرها أنت، وتتغلب عليها بعد مجاهدة ومكابدة؛ فتركبها طوعاً وكرهاً، ولا تلفيها إلا صرعى؛ لكأنها حملٌ وديعٌ؛ حتى إذا أمنت، ثم غفلت، ثم أطلقت لها العنان، أعادت الكرة تلو الكرة، لا لك بل عليك...

فيا سبحان القائل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

نفسى أنا طفلةٌ، رخوةٌ، هشةٌ، واهيةٌ، واهنةٌ...

كلّما ظننتُ أنها قد زكّت وارتقت، غالبتني ببعض حماقاتها وسخافاتهما؛ نعم هي من قبيل كلمةٍ، أو خاطرةٍ، أو تفاهةٍ؛ قد لا يُعتدُّ بها، وقد لا يلتفت النبيه إليها؛ ولكن، أليس الارتقاء عُرْضةً لوخزة إبرة حتى يستحيل سقوطاً؟ أليست النفوس الكبار، مثل بالونٍ كبير، تكون أكثر رهافة وحساسية من النفوس حين تصغر؟ لا أدري، هكذا تولّد الكلمات من مُهجتي الحرّى، وهكذا تظهر لي تفاصيل الحياة: قلقاً باردةً، هائجةً مائجةً... ثم أستغفر الله ذي الجلال، فتزولُ عني الوسوس إلى حين، وما إن أغفلُ أو أصمت برهةً، حتى تعودَ ولو بعد حين... تعودُ كما بدأت المشوار: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

لولا أنّ فكري يسبح، ولولا أنّ عقلي يسرح، ولولا أنّ قلبي - في اليوم آلاف المرات - يُجرح...  
يسبح في استكمال الفهم لحقيقة أمتي... ويسرح في استعراض آهات أمتي... ويُجرح بخنجر أمتي....  
لولا ذلك لما بكيتُ، ولما شكيتُ؛ ولعددتُ ما هنالك ﴿عَارِضًا﴾ يزول، وسدًا - لا بدّ يوماً ما - يحول؛ لكنّ المسألة...  
والطامة... والحاقّة... هي أعقد مما تتصوِّرون، وأبلغ مما تقولون: إنها قضية أمتي؟

أَيَّ أُمَّةٍ أَعْنِي؟ مَا دَهَاها؟ مَا الَّذِي أَصَابها؟ مَنْ مِنَ الطُّغَاةِ  
سَبَاها؟ مَنْ هُوَ الْوَجِحُ الَّذِي قَلَاهَا وَجَفَاهَا؟

وَأَيْنَ وَجْهِ الشَّبهِ بَيْنَ مَا يَشْكَلُ صُورَةَ أُمَّتِي وَمَا وَرَدَ عَنِ ثَمُودَ  
﴿الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ﴾، وَعَادَا الَّذِينَ ﴿الَّذِينَ اسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى  
الْهُدَى﴾، وَفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾؟

وَيَبْقَى السُّؤَالُ عَنِ أُمَّتِي قَائِمًا، مَا دَامَ لِي قَلْبٌ يَنْبِضُ:

لِمَ كُلُّ النَّاسِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَمِنْهَا؟

وَلِمَ هِيَ تَأْكُلُ كَبِدَهَا بِطَحَالِهَا؟

وَتَقْطَعُ وَتَبْنِيهَا بِأَمْعَائِهَا؟

وَتَعْرِقِلُ رِجْلَهَا الْيَمْنَى بِرِجْلِهَا الْأُخْرَى؟

لِمَ هِيَ هَكَذَا:

تَلْغُو عَلَى مَقُولِ شَفْتَيْهَا بِصَفَّارَةِ لِسَانِهَا؟

وَتُصِمُّ أَذَانَهَا بِخِيَاشِيمِهَا؟

وَتَدْكُ رَأْسَهَا بِمَعْصَمِهَا؟

وَتَفْقَأُ عَيْنَهَا بِظِلْفِهَا؟

لِمَ... وَلِمَ كُلُّ هَذَا؟

مَنْ يَمْلِكُ الْجَوَابَ؟

وَمَنْ يَدَّعِي وَيَزْعَمُ بَزْوَعًا شَمْسٍ تَعِيدُ اللَّحْمَةَ بَيْنَ الْأَحْبَابِ؟

أَكْتَبُ هَذِهِ الْأَسْطُرَ، وَفُوَادِي الرَّخْوِ فَارِغٌ فَارِغٌ ﴿فُوَادُ أُمَّ

مُوسَى﴾، وَقَلْبِي الصَّرِيحُ «بَيْنَ جَنَاحِي طَائِرٍ»...

ثم أوصل الكتابة عنوة... أمارسها وأنا أقترف بها خطيئةً بل خطايا، في زمن لا يرحم «الكاتب والكتاب»، ولا يأبه «بالكلمة والعبارة»؛

أكتب هذا وأكفر بالقول والقائل، أكتب وقد اقتحمت عتبه «المعارج» بسؤال الأرحام، ثم مع ذلك أتوب فأقول:

صدقت ربنا، إن الأرحام تتقطع يوم يُعرج الناس إلى أرض الحساب؛ لكن، أن تتقطع تلکم الأرحام، اليوم، ولما تدق ساعة القيامة... أن تتقطع ولما ينفخ النافخ في الصور؛ فهذا ثقيل على ذي الفؤاد، وشديد على صاحب الضمير، وقاتل للروح ألف مرة ومرة إذا بقي في الأحشاء فؤاد، وروح، وضمير...

قد لا يحس من حولي وما حولي أي ألم يلم بي، ألم يجرحني لمجرد خبر أو صورة أو كلمة تمرّ عابرة في شاشة، أو يغدق بها لسان محب؛ فما يلبث الكدر أن يخيم على نفسي الرهيفة رهافة الورد، الرقيقة رقة الحرير، اللطيفة لطافة وجه الحبيب؛ نفس إذا لمستها خطرأت نسيم عليل أذمت وتقيحت، وهي تكاد تهشم أو تتحطم...

قد لا يدرك من يراني أنني أقيس كل نامة ونسمة في واقع أمي، بما أتלוه في آيات ربي؛ فما وافق كان مصدر راحتي وجنتي؛ وما خالف كان سبب قلقي وجحيمي...

لولا لطف الله جلاله بي وبها: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾...

لا أو اصل الكتابة، مقرونة بالتلاوة؛ وأترك القيادة بيد القارئ اللبيب، ليزيد أو يُبِيد...

واللبيب تكفيه الإشارة، وتعذِّبه العبارة...

أَمَّا السَّفِيه فلا يُؤَبِّه به، ولا يوجِّه إليه الكلام...

ويبقى فصل القول في حقيقة هذا الإنسان، قول الله تعالى

عنه:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا...﴾

إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا...﴾

وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا...﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ...﴾.

د. محمد باباعمي

برج البحري، الجزائر المحروسة

20 ذو الحجة 1441هـ - 10 أوت 2020م







قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَاقَّةُ ① مَا الْحَاقَّةُ ② وَمَا أَدْرَاكَ ④  
مَا الْحَاقَّةُ ③ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُهُ بِالْقَارِعَةِ ④

### بذور المعنى

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: بسم الله تعالى الذي جعل التوحيد أساساً لحركية البشر، به تؤخذ العبرة من الأمم السابقة الضالّة المكذّبة، والتي حاق بها العذاب لما كذّبوا الرسل؛ ومن رحمة الله تعالى أن فصل لنا البيان في أحداث يوم القيامة لنعتبر ولنكون على إيمان ويقين، فننجو من عذابه، وننال رضاه؛ ومن رحمانيته سبحانه أن قسّم الناس يوم الجزاء إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشّمال؛ فليختر كل إنسان الصّف الذي سيلحق به، ولا يكون ذلك إلاّ بإيمانه وعمله. ويستمرّ التكذيب، ولكنّ عذاب الاستئصال

قد أَجَلْ، وتبقى الحقيقة الناصعة أن كتاب الله حسارة على الكافرين ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾؛ والأمر المحقق إلى يوم الدين هو: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

تلتحم خاتمة سورة القلم مع خاتمة سورة الحاقة في وحدة موضوعية حتى لكانهما نزلتا متجاورتين: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾، ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (49) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (50) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

﴿الْحَاقَّةُ﴾: مشتقة من حق الشيء إذا ثبت وقوعه، والحاقة مؤنث الحاق؛ ومعناها حادثة تحقق أو حق يحق، وهي النازلة والداهية؛ و﴿الْحَاقَّةُ﴾ من أسماء يوم القيامة كما ورد في الأثر وفي جملة من التفاسير؛ سمي بذلك لأنه يومٌ محقق وقوعه، أو لأنه تُحَقَّق فيه الحقوق. والصيغة بديعة تدفع السامع إلى توسيع مدى فهمه وإدراكه لهول هذا اليوم الحاق بالناس لا محالة.

﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾: ﴿مَا﴾ للاستفهام والتهويل والتعظيم، معناه: أتدري ما الحاقة؟ ونظيره في القرآن كثير: ﴿أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾، ﴿الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ﴾.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾: ﴿مَا﴾ الثانية استفهامية، وهي كناية عن تعذر إحاطة الإنسان بكنه الحاقة؛ فما خرج عن المؤلف

تعدَّرَ فهمه، فاحتيج فيه إلى مصدر يُعلمه ويُدريه به، وإلا لم يدرك فهمه. والفرق بين ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ و﴿مَا يُدْرِيكَ﴾ أَنَّ الأوَّلَ أَعْلَمُ بِهِ الْإِنْسَانُ، والثاني طُوي عن الإنسان ولم يعلم به؛ كما ورد عن حبر الأمة ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

والمخاطَبُ في الآية هو الرسول ﷺ، أو كلُّ من هو أهلٌ لأن يخاطَبَ.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُمْ بِالْقَارِعَةِ﴾: القرع هو الضرب القوي، والقارعة هي التي تفرع الناس بالأهوال، وتفرع السموات والأرض والنجوم والجبال وكلَّ المخلوقات بالنسف والدك؛ و﴿القَارِعَةُ﴾ من أسماء يوم القيامة؛ ولقد كذَّب بها ثمود وهم قوم نبيء الله صالح، وكذَّب بها عادٌ وهم قوم نبيء الله هود، عليهما السلام. ولقد سميت سورة في القرآن باسم «سورة القارعة».



### التشغيل والتفعيل

سميت السورة باسم ﴿الحَاقَّةُ﴾ في عهد محمد ﷺ لأحاديث واردة في ذلك. وسميت كذلك سورة السلسلة مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة:32]؛ ومعلوم أنَّ تسمية السور توقيفيَّةٌ وليس توفيقيا؛ قال الإمام السيوطي: «وقد ثبتت جميع أسماء السور

بالتوقيف من الأحاديث والآثار».

❏ في كامل القرآن الكريم ورد ذكرُ عادٍ قبل ثمود، وفي هذه السورة ورد ذكر ثمود قبل عادٍ، فما هي حكمة الترتيب؟ وبأي اعتبار يكون الترتيب؟



## • من الفكر إلى الفعل

• ينبّه معنى ﴿ الْحَقَّاقَةُ ﴾ إلى وجوب الجدّ والصرامة، وعدم الاستهزاء بشأن يوم القيامة الحاقق بالإنسان لا محالة؛ فالأمر جدّ وليس بالهزل.

• في تاريخ الأمم السابقة عبرة للمؤمن؛ ذلك أنهم لو سادوا وما ماتوا لأمكن أن يسود ولا يموت؛ ولكنّ الموت ومقدمات الآخرة حقت بهم، فكذلك ستحق بكم؛ سواء آمنتم أم لم تؤمنوا.

• إنكار البعث، والاستخفاف بأمره مع دعوى الإيمان؛ يُردي بالإنسان إلى المهالك، وينيله غضب الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

• للقراءة: «الإسلام وحركة التاريخ» أنور الجندي.



قال الله تعالى:

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ٥ وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ  
عَاتِيَةٍ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى  
الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغِي كَأَنَّهُمْ دَعَجَارٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ ٧ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ  
مِّنْ بَاقِيَةٍ ٨



### بذور المعنى

- ❏ ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾: ابتدئ بشمود رغم أن الترتيب في باقي الآيات من القرآن يبدأ بعاد ثم ثمود؛ لأنَّ العذاب الذي أصابهم أقرب إلى القرع؛ والطاغية هي الصاعقة، وطغا في الشيء جاوز الحدَّ؛ وهي صيحةُ العذاب، سميت طاغيةً لتجاوزها الحدَّ في الهلاك. أصابتهم صواعق فأهْلِكُوا، وسكناهم في طريق أهل مكة إلى التجارة، قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: 52].
- ❏ ﴿وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾: الريح الصرصر هي

التي لها صوتٌ كالصرير، أو الباردة شديدة البرودة؛ والريح الصرصر وصفٌ مكرَّر من «الصر» أي ﴿صَرَصِرٌ﴾، فهي تُحرق من شدَّة بردها؛ وصرصرَ صاحَ بصوت شديد متقطع؛ فهي صرصر، أو أن من تُصبُّ عليه يصرصرُ ويصيح.

❏ أما العاتية فهي الريح الجبَّارة أي شديدة العصف والهبوب؛ والعاتي هو الجبَّار المتكبر قاسي القلب غير لين؛ ومثل هذه الريح توصف بكلِّ هذه الأوصاف الكريهة الشديدة. وقيل عاتية من عتا الشيء إذا بلغ مداه ومُنتهاه؛ فهي بالغة مداها ومُنتهاهها في الشدَّة والقوَّة.

❏ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾: وسخَّرها أي أرسلها خاضعة مقهورة ذليلة، وفي اختيار مادة ﴿سَخَّرَ﴾ مزيد عذابٍ للكافرين؛ لأنَّ التسخير غالبًا يستعمل في الخير: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [العنكبوت: 61]، ﴿وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ﴾ [الأعراف: 54]... ثم إنَّ فعل سَخَّرَ منسوبٌ إلى الله تعالى دالٌّ على أنه ليس أمرًا كونيًّا، وإنما هو أمرٌ ربانيٌّ خارق للسنن الكونية، متجاوز للتفسيرات المادية.

❏ وحسومًا أي متتابعات ومشؤماتٍ، أو جمع حاسمٍ وحاسمةٍ أي قاطعة؛ فهي في سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ، واليوم هو النهار هنا، لتقابلها مع الليل؛ أي بدأ العذاب نهارًا وانتهى نهارًا، فتمت الثمانية للنهار والسبعة لليل؛ والريح العاتية الصرصر كانت في كامل هذه المدَّة تهبُّ عليهم وتقطعهم فتهلكهم.



❏ ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى﴾: فيرى الرائي لو أنه رأى هؤلاء القوم الشداد في أجسامهم وهم صرعى؛ وهو أسلوبٌ بديع في تحريك مدارك وحواس القارئ نحو أمرٍ عظيم، فيعيشه بجميع مشاعره وعواطفه؛ وصرعى أي ملقون على الأرض هلاكاً.

❏ ﴿كَأَنَّهُمْ وَعَجَزٌ نَّخْلٍ خَاوِيَةٌ﴾: فتراهم مثل أعجاز نخل، أي مثل جذوعها وأصولها وسيقانها، تراهم مثل هذه الأعجاز حيث تكون خاويةً جافةً خاليةً من كل معاني الحياة والقوة، وفي سورة القمر: ﴿كَأَنَّهُمْ وَعَجَزٌ نَّخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: 20]. وشبَّهوا بأعجاز النخل لكبر جثامينهم مع قلة عقولهم وصغرها؛ ولو كانوا يعقلون لما عصوا رسول ربهم، ولما أعلنوا الحرب على الله جَلَّ جَلَالُهُ.

❏ ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾: هو تقيُّعٌ وتعليقٌ على القصتين؛ هل ترى لأحدهم من أثرٍ، أي هللكوا جميعاً ولم يبق لهم أثر: ﴿وَأَنَّهُمْ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (50) وَتَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ﴾ [النجم: 50-51]. ومن المعاني أنه لم يبق لهم عقبٌ ونسلٌ، فإنهم هللكوا جميعاً وهلكت ذرياتهم معهم.



## التشغيل والتفعيل

❏ منازل قوم عاد التي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ

(7) التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿[الفجر: 7-8]، وقد سمي الله تعالى سورة باسم هذه المنازل هي «سورة الأحقاف»، وقال: ﴿وَأَذْكُرَ آخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: 21]. أمَّا منازل قوم ثمود فهي من الحجارة: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِءِ﴾ [الفجر: 9]، وتسمَّى «المدائن» أو «مدائن صالح»، وكذلك سميت سورة من القرآن الكريم بها وهي «الحجر» قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر: 80].

◻ سميت أيام من أواخر شهر فبراير وأوائل مارس بالحسوم، أو «أيام الحسوم» وفيها تشتدُّ الرياح غالباً، ويضطرب الجو، يقول ابن عاشور: «وزعموا أنها تقابل أمثالها من العام الذي أصيبت فيه عاد بالرياح، وهو من الأوهام، ومن ذا الذي رصد تلك الأيام».



## • من الفكر إلى الفعل

• كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به» ومن السنة أن يقول المسلم ذلك حين هبوب الرياح،

• إذا تغيرت السماء تغير لون رسول الله ﷺ وخرج ودخل وأقبل وأدبر؛ فإذا أمطرت سُري عنه فعرفت ذلك في وجهه، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: فسألته فقال: «لعلَّه يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أُوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾».



قال الله تعالى:

وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكْتُ بِالْحَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا  
رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾

### بذور المعنى

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكْتُ بِالْحَاطِئَةِ﴾: المراد بفرعون فرعون الذي أرسل إليه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ قال تعالى: ﴿أَذْهَبِ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: 24]. وأما مَنْ قبله فيشمل أمما كثيرة، من مثل قوم نوح، وقوم هود، وقوم عاد، وقوم إبراهيم وغيرهم.

وقرى: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ أي مَنْ عنده مِنْ أتباعه ومن جهته، أي هم محسوبون على فرعون، تابعون له.

الموتفكات: هي قرى قوم لوط، وهي ثلاث قرى نسب قوم لوط إليها، قال تعالى في سورة النجم: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى

(53) فَعَشَّاهَا مَا عَشَّى ﴿[النجم:54]﴾. وأصل التسمية من اتفك أي انقلب، والمؤتفكات والموتفكات أي المنقلبات، ذلك أنها قُلبت عذابا من الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر:74].

❏ الخاطئة مصدر خطئ، أي أذنب؛ فبالنسبة لقوم فرعون كانت الخاطئة تكذيب موسى عَلَيْهِ السَّلَام، وتأليه فرعون، وتعذيب بني إسرائيل؛ وغيرها من الذنوب التي ارتكبوها؛ أمَّا قوم لوط فالخاطئة في حقهم هي تشوُّه فطرتهم، وإتيانهم الرجال شهوةً من دون النساء، وأمَّا من كان قبل فرعون، فلكلِّ أُمَّةٍ أهلكت خطيئتها وخاطئتها.

❏ ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾: الجامع بين هؤلاء هو أنهم ﴿عَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون:44].

❏ ﴿فَأَخَذَهُمْ وَأَخَذَةَ رَابِيَةً﴾: الأخذ مستعمل في الإهلاك، قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأعراف:95]، وقال: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ وَأَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ﴾ [القمر:42]. والأخذة واحدة من الأخذ، ومعناه أخذنا كلَّ أُمَّةٍ من الأمم المهلكة أخذةً واحدةً. وصفتها أنها رابيةٌ أي زائدة، استعير للشدة، والأخذة الرابية هي ما كان من قبيل هلاك الاسئصال.





## التشغيل والتفعيل

تذكر المصادر التاريخية، والحفريات الأثرية؛ أنّ العديد من الملوك تسمّوا باسم فرعون، منهم: «تحتمس الأول، والثاني، والثالث»، و«توت عنخ آمون»، و«رمسيس الثاني»؛ ولا يزال الغموض يكتنف الدراسات عمّن هو «فرعون موسى» على التحقيق.

يلاحظ في فواصل هذه الآيات الأولى من سورة الحاقة، معنى الزيادة والتجاوز عن الحدّ عبّر عنها بألفاظ بديعة، منها: الطاغية، عاتية، رابية...

حين يجد الطاغية ﴿مَنْ مَعَهُ﴾ يشاركونه الظلم والطغيان فإنّه يزداد ظلماً إلى ظلمه، وطغياناً إلى طغيانه؛ ولذا فكلّ ظالم له سندٌ ودعْمٌ وحاشيةٌ سوءٍ؛ وللأسف في عصرنا، ثمة مفسدون في الأرض يجدون من «علماء السوء» من يبرر لهم ما يأتون وما يذرون، ثم ينسب ذلك إلى «الإسلام»، ويُقترف باسم «الإسلام»؛ ظلماً وعدواناً.



### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ إذا أتت أمة الذنوب حتى تجاوزت الحدَّ، فإن عذاب الله يوشك أن يحلَّ بها؛ وإن لم يكن عذاب استئصال فإنه سيكون شقاءً وهلاكًا بصور شتى.

❖ لا تُعِن ظالما على ظلمه؛ ومن أعان ظالما فهو مثله أو أشد منه وأقبح.

❖ كن مثل الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، حتى لو كنت غريبا؛ ولكن مع ذلك لازم الحكمة والصبر، وتحرَّ الصواب والحقَّ، في لينٍ وحزمٍ معًا.

❖ للقراءة: «نضح الكلام في نُصح الإمام» للعز بن عبد السلام (ت. 660هـ).



قال الله تعالى:

إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا  
لَكُمْ تَذْكَرَةً وَتَعِيَهَا أذُنٌ وَعَيْتٌ ﴿١٢﴾

### بذور المعنى

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾: قول الله تعالى ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ شمل قوم نوح، الذين ﴿عَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ وَأَخَذَهُ رَأْيِيَّةً﴾؛ ومن أعظم الأخذ، الذي مس البشرية كلها ما كان من أمر طوفان قوم نوح، وتفصيله أنه:

﴿لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ﴾: في ذلك الطوفان الذي تعرفون، حتى شبه فوران الماء بالطاغي الشديد على الناس

في تجاوز حدِّ الظلم؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَمَلَ نَوْحًا وَمَنْ مَعَهُ مِنْ  
﴿كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ فِي السَّفِينَةِ.

❏ وسميت السفينة ﴿الْحَارِيَّةَ﴾ لأنها تجري في البحر، قال  
تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ﴾ [الرحمن: 24] حتى  
أصبح هذا الاسم علمًا عليها.

❏ ونسبة الحمل إلى اسم الجلالة مجازٌ، وهو تشریفٌ وتكریمٌ  
للمحمول، وهم الناجون من المؤمنين؛ والله تعالى في  
كلامه الحكيم يذكّرنا بفضلِهِ علينا: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مَنْ  
ظَلَمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: 63]، ثم يأتي الجواب: ﴿قُلِ  
اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: 64]، وعن نوح  
عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: 15].

❏ ﴿لِتَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾: من الحِكم والعلل التي نقرأها  
في هلاك الكفار ونجاة المؤمنين، لتكون لمن يتلو القرآن  
الكریم آيةً وتذكرةً وعبرةً إلى يوم القيامة؛ فيعرف أن مصير  
البشر بيده سبحانه، وأن أخذه أليمٌ شديدٌ، وأن الله تعالى  
ينجي من يشاء كيف يشاء، ويهلك من يشاء بما يشاء متى  
يشاء؛ سبحانه لا رادَّ لحكمه، ولا ناقضٌ لحكمه.

❏ ﴿وَتَعِيهَا أُذُنٌ وُعِيَّتْ﴾: الوعي هو السماع مع الفهم وسلامة  
الإدراك، وهو الحفظ والتقدير؛ والحكمة كذلك من إيراد  
ما تقدم أن يعي من كانت له أُذُنٌ واعيّة هذه العبرة؛ وفيه  
تعريضٌ بالمشركين أنهم يمرون على العبر ولا يعونها:

﴿وَكَايِن مِّن - آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: 105].



## التشغيل والتفعيل

❏ إنما قصَّ الله تعالى قصص مَنْ قبلنا لنعتبر ونتَّعظ، ولنذكرها بوعي وسلامة تفكير؛ لا أن نتفكَّه بها، ونجعلها مثل القصص الأخرى موضوعاً للحديث، ومجالاً للتحليل، بلا عبرة؛ وفي هذا توجيه لمنهج التعامل مع التاريخ ومع أحداث الغابرين.

❏ يقول علي عزت بيجوفيتش في كتابه «هروبي إلى الحرية»: «ما الذي يميز الكاتب الأصيل؟» ثم يجيب: «قبل كل شيء، القدرة على الملاحظة. هناك أناس يعيشون الحياة وكأنهم يعبرونها مغمضين». والعبارة تصلح تفسيراً عميقاً لقوله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾، ولقوله سبحانه: ﴿وَكَايِن مِّن - آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.



### • من الفكر إلى الفعل

• الاعتبار بالتاريخ من أعظم وسائل التربية،  
 خاصة إذا كان مؤلفاً على المنهج القرآني،  
 لا على الرتابة السردية، أو على مناهج عدائية  
 إقصائية مما تسمم به هذا الحقل من المعرفة  
 للأسف.

• العلاقة بالطبيعة، وفي الآية التي نحن بصددنا  
 «الماء» هو رمز للطبيعة؛ ليست علاقةً هينة  
 وبسيطة؛ فلكل فلسفة من الفلسفات العالمية  
 الكبرى رؤيتها وعقيدتها: من تأليه الطبيعة إلى  
 تحطيمها، هذا هو الطريق الطويل الذي قطعتة  
 البشرية مُتعبة؛ وهي حين تنكرت لخالقها وخالق  
 الطبيعة ضلت الطريق، وحل بها التيه.  
 • للقراءة: «هروبي إلى الحرية» علي عزت بيغوفيتش.



قال الله تعالى:

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةٌ وَحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ  
فَدُكَّتَا دَكَّةً وَحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةٌ وَحِدَةٌ﴾: بعد تذكير الله تعالى بعذاب الدنيا الذي أصاب الكافرين من قبل: ثمود، وعاد، وقوم فرعون، والمؤتكتفات، وقوم نوح، وسائر الأمم من قبل موسى؛ تحوّلت الآية إلى بيان العذاب الدائم الذي استهلّت به السورة، وسميت به، وهو ﴿الحَاقَّةُ﴾، و﴿الوَاقِعَةُ﴾، ولقد فرّعت الآية التهديد بحرف الفاء: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ إيذاناً بالقرب.

﴿والصور في اللغة قرن ثور فارغٌ، معدٌّ للنفخ وإصدار

الصوت الشديد؛ وهو متَّخذٌ للنداء أو للتحذير من خطر أو عدوٍّ.

❏ أمَّا النفخ في الصور في شأن الآخرة، فهو كما قال صاحب «التحرير والتنوير»: «عبارة عن أمر التكوين بإحياء الأجساد للبعث، مثل الإحياء بنداء طائفة الجند المكلفَّة بالأبواق، لنداء بقية الجيش، حيث لا يتأخر جنديٌّ عن الحضور».

❏ ثم قد يكون للصوت الصادر للبعث شدَّة لا يتصوَّرها العقل المجرَّد إلاَّ تسليمًا لله تعالى. ومن عادة المصائب أن تلازمها أصواتٌ، مثلما يقع عند الزلازل والصواعق.

❏ ﴿وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾: إذا كان حمل الناس على الجارية في قصَّة نوح للنجاة، فإنَّ الحمل للأرض وللجبال، يوم يُنفخ في الصور، سواء بواسطة أو غيرها؛ هو حملٌ للهلاك وللدكِّ والإفناء.

❏ تبدو صورة حمل الأرض والجبال كصورة من يحمل شيئًا إلى السماء، ثم يلقي به بقوة وشدَّة، فيدكُّه ويسويِّه بالأرض ويفتته ويفرِّق أجزاءه؛ قال تعالى في آية أخرى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: 21].

❏ ولقد ناسبَ النفخة الواحدة الدكَّة الواحدة؛ لأنَّ الأمر جدُّ لا يحتاج إلى تكرارٍ وإعادة، كما يقال: قتله بضربة واحدة.

❏ ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾: أي في ذلك الوقت والزمن الذي

يقع فيه ما ذكر من النفخ والحمل والدك، في ذلك الوقت يكون قد تحقَّق ما ذكر من قبل أمر الواقعة، وهي القيامة التي يتوقَّع حدوثها في كلِّ حينٍ؛ والواقعة مرادفةٌ للحاقة والقارعة الواردتين في مستهلِّ السورة. ولقد سميت سورة باسم ﴿الْوَأَقِعَةُ﴾؛ لأنها صارت علماً على البعث، وعنواناً لقيام الساعة.



### التشغيل والتفعيل

❏ لا يملك أيُّ علمٍ معرفة المستقبل، بله أن يعرف أحوال قيام الساعة، أو حقيقة الغيب يوم القيامة؛ فالمصدر الموثوق الوحيد هو كلام الله تعالى القطعي الثبوت والدلالة؛ ولذلك كان الغيب محلَّ إيمانٍ وتسليم، لا موضوع ملاحظة وبحث ودراسة، وعلمٍ قد يصيب وقد يخطئ.

❏ يفسر هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَعَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: 147]؛ والله تعالى رحيمٌ بنا، يدعونا للنجاة، ويحذرننا من الهلاك؛ فمن ظلم نفسه بعد ذلك، فلا يلومنَّ إلا نفسه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: 17].





### ❦ من الفكر إلى الفعل

❦ إنما يصف الله تعالى أهوال قيام الساعة لتكون لنا عبرة وذكرى، ثم نتوب ونستغفر الله، ونعمل عملاً صالحاً يكون لنا زاداً لذلك اليوم الشديد، ولما بعده.

❦ الله لطيفٌ بعباده، ولو شاء لكتب عليهم الهلاك وعذاب الاستئصال في كلِّ حين، شأن الأمم السابقة؛ ولكنه رفع عنهم بعد خاتم النبيين هذا العذاب؛ وهذا دافع للتقوى والشكر: لك الحمد يا ربنا.

❦ حول عذاب الاستئصال، يُقرأ: «تفسير المنار» محمد رشيد رضا، الجزء السابع، تفسير سورة الأنعام.



قال الله تعالى:

وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا  
وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ  
لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾

### بذور المعنى

﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾: استئنفا لحال الكون يوم تحيق الحاقة، ويوم يُنفخ في الصور، ويوم تقع الواقعة؛ فقد ذكر تعالى حال الأرض، وأمّا حال السماء باعتبارها اسمَ جنسٍ، أي جنس السماء؛ فهي تشق فتنشقُ، وتصير واهية في ذلك اليوم.

﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾: انشقاق السماء إصابتها بالصدع والكسر وانفتاح المنافذ فيها، حتى تصير ضعيفة متفرقة واهنة، بعد أن كانت متماسكة صلبة لا خلل فيها ولا فطور.

﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾: ولقد بسطت الآيات في وصف انشقاق السماء بما يفتح

مجالا للبحث: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: 1]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءِ بِالْعَمَامِ﴾ [الفرقان: 25]، ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبا: 19].

❏ ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾: الأرجاء هي الأنحاء، والمَلَكُ أصله الواحد من الملائكة، وهو هنا لجنس الملائكة، أي جميعها؛ أمّا كيف أنّ الملائكة تقع على الأرجاء والأنحاء، وهل كانوا في مأمن عن آثار هلاك الكون؟ وهل ذلك قبل أو بعد النفخ؟ فذلك ما لا يدركه العقل، ولا يقدره العلم، وإنما الموطن موطن إخبار بما يقع في ذلك اليوم العظيم على صيغة الإشارة والإجمال، لا بالتفصيل والتوضيح. وإنما الغرض هو العبرة والاعتبار.

❏ ولا ريب أنّ العذاب لا ينال الملائكة ولا يلحقهم، وإنهم هم جند الله يرحم بهم من آمن، ويعذب بهم من كفر.

❏ ﴿وَيَحِجُلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾: كذلك في الثمانية، هل هم ثمانية ملائكة؟ أم ثمانية صفوف؟ قال ابن عاشور: «هذا من أحوال الغيب التي لا يتعلّق الغرض بتفصيلها، إذ المقصود من الآية تمثيل عظمة الله تعالى».

❏ ولقد وردت أحاديث وآثار كثيرة في وصف العرش، والمبالغة في عرض مكوّناته؛ وذلك ما لا يستقيم في التوحيد؛ وإنما الواجب هو تنزيه الله تعالى عن كلّ تجسيم

وعن قياس للشاهد عليه، أو تصوُّره بصورة مخلوق من مخلوقاته؛ ثم الإيمان بأنَّ ما جاء به حقٌّ، وتعظيم شأنه وأمره وحُكمه.

❖ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾: العرض هو تمرير شيء أمام العين، وعرض الجند مروَّههم أمام القائد لينظر في حالهم ويتَّخذ فيهم قراراته؛ ومن معانيه المحاسبة. فجميع الناس يومئذ معروض ومكشوفٌ؛ ولا شيء يخفى منهم ولا عنهم. فلا يخفى على الله سبحانه شيءٌ في الآخرة، كما لم يخف عليه شيء قبل ذلك في الدنيا. فعدم الخفاء باعتبار المحاسبة لا أنَّه كان ما بالناس خفياً ثم ظهر؛ ويجوز أن يكون المعنى: لا تخفى على الملائكة، أو الخلائق جميعاً، خافيةٌ. فهو يوم النشور، ويوم الكشف للمستور. نسأل الله تعالى أن ينجِّبنا ويخفِّف حسابنا.

❖ والآية دالَّة على العدل في الحساب؛ إذ لا يوجد تمايز في حساب الخلق، ولا إخفاءً لشيء على أحد.



### التشغيل والتفعيل

❖ يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الكتاب أكثر من الكتب»، والقاعدة أنَّ «استغراق المفرد أصرح في الدلالة على الشمول»، ولذلك جاءت النعم في عموم نعم الله تعالى بصيغة المفرد:

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34]، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11]؛ كما جاء الحديث عن الملائكة بالمفرد في هذه الآية: ﴿وَالْمَلَكُ﴾.

وقع جدال كلامي كبير في تأويل العرش، وفي بيان العرش الوارد ذكره في كتاب الله تعالى، في هذه الآية وفي غيرها من مثل قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: 7]؛ فمن العلماء من يحمله على المجاز، ويرى أن معناه الملك والحكم؛ ومنهم من يرى أنه خلق عظيم، وأنه محمول على الحقيقة؛ وفي الحديث الشريف: «اهتزَّ عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ» [رواه البخاري]. ولا يمكن الفصل والقطع؛ لأن ما ورد من نصوص في كتاب الله تعالى، وما جاء من أحاديث؛ وإن كان قطعي الثبوت، إلا أنه غير قطعي الدلالة غالباً؛ ولذا جاز الاختلاف في التوجيه، بل وثم خلاف بين من يعتد بعلمه؛ لكن شريطة تنزيه الله تعالى، وتعظيمه جَلَّ جَلَالُهُ.



## ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ هل تملك الكوسمولوجيا وعلوم الفلك أن تفسر لنا انشقاق السماء علمياً؟ أم أن الأمر فوق الحسابات والتجارب؟ هذا مجال للخيال والظن كبير، فليكن الإيمان قاعدة فيه، ثم لنجتهد في العلم بلا ادعاء.

❖ السماء نعمة من نعم الله تعالى علينا، ومن شرور المدينة بعمرانها الصاحب أنها حالت بيننا وبين النظر في السماء والنجوم والطبيعة عموماً، حتى تبدل جِسُنًا، وضاق أُفُقُنَا، وضاعت وجهتُنَا.

❖ علاقتنا بالملائكة علاقة خادم بأمر الله ومخدوم، إذا أمناً برينا وأطعناه؛ وإلا كانت علاقة جاحدٍ لله بجند من جنود الله... وكم من عذاب يوم القيامة سيكون على يدهم بأمر من الله سبحانه.



قال الله تعالى:

فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ وَيَمِينَهُ فَيَقُولُ هَذَا مَا آفَرَعُوا كِتَابِيهِ ۗ إِنِّي  
ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حِسَابِيهِ ۗ فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۗ فِي جَنَّةٍ  
عَالِيَةٍ ۗ فَطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۗ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي  
الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۗ



### بذور المعنى

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ وَيَمِينَهُ فَيَقُولُ هَذَا مَا آفَرَعُوا كِتَابِيهِ﴾: حين تعرّضون على ربكم، ولا تخفى منكم خافية؛ مما يقع في ذلك الحين أنّ الناس يتوزّعون إلى فريقين؛ الفريق الأول هم من أوتي كتابه بيمينه، وهم أصحاب اليمين: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: 27]؛ هؤلاء السعداء، لبهجتهم وحبورهم يسارعون إلى إطلاع الناس على ما يحويه كتابهم من بشرى خير؛ فإنّ النفس تميل إلى عرض الخير على الناس، وعلى إخفاء الشرّ عن الأعين.

❖ والعرب تقول هاؤما وأنتما، وتقول هاؤم وأنتم؛ ومعناه خذوا كتابي واقرووه.

❖ ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾: الظنُّ هنا بمعنى اليقين، وعن الضحاك قال: «كلُّ ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شكُّ». أي إني تيقنت في الدنيا واعتقدت يقيناً أني سألقى الجزاء الأوفى، وسأحاسب كما أخبرني ربي؛ أي إني آمنت بالبعث.

❖ ﴿فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾: أصل العيشة ما تكون به الحياة من مأكُلٍ ومشربٍ وملبسٍ؛ واستعيرت للحياة نفسها؛ فكان معنى في عيشة أي في حياةٍ؛ راضية أي مرضية؛ ذلك أنَّ صاحب هذه العيشة في رضا، وحياته راضية.

❖ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾: أي هذه العيشة في جنَّة، أو أنها في جنَّة عالٍ قدرها ومكانتها؛ قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (8) لَّسَعِيهَا رَاضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية: 8-10].

❖ ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾: القُطُوف هو ما يجنى من الشجر من غلَّةٍ وثمارٍ قبل الجذاذ، من رطبٍ أو عنبٍ أو غيرها من الفواكه مما يؤكل مباشرة؛ وثمر داني القُطُوف أي سهل المنال، في متناول اليد.

❖ وقُطُوف الجنَّة دانية بمعنى أنَّ القائم والقاعد والتمكئ والمضطجع جميعهم ينالها بيده، بلا عناء؛ أو هي عالية على أغصان الشجر، فإذا أراد المؤمن قطافها تدلَّت ودنت

إليه بلا عناء؛ وهكذا قيل عن الطير كذلك. وهي على العموم غير ممتنعة ببعده ولا شوك، ولا ما يمنع الوصول إليها غالباً.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾: وقد أفرد الوصف لأصحاب الجنة، ثم جاء الخطاب بالجمع؛ وهو كما يقال للضيوف جميعاً: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾؛ أي كلوا أكلاً واشربوا شرباً هنيئاً مرياً. والأكل الهنيء هو غير المنغص ولا المكدر؛ وذلك جزاء ما سبق من فعلكم، وما أسلفتم وأمضيتم من إيمان صادقٍ وعملٍ صالح؛ وهذا ﴿جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ [الإسراء: 63]، وهو ﴿الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ [النجم: 41].

والأيام الخالية أي البعيدة، وهي خالية من المعاصي والكبائر التي حرّم الله تعالى؛ وحتى لو ارتكبتها ثم تاب فهي في حكم الخالية منها، وهذا فضلاً من الله ومنّة.



## التشغيل والتفعيل

في سورة الانشقاق قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: 7-9] وبالجمع بين هذه الآيات والتي في سورة الحاقة، وغيرها من أوصاف السعداء حين يؤتون كتابهم بيمينهم، يمكن أن يكتمل المشهد، وتلتقي أجزاء الصورة البديعة. والقرآن يفسّر بعضه بعضاً.

### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ عن سعد بن مالك أنه سمع ابنا له يقول: «اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها وحريرها ونحو هذا. وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها» ونحو هذا. فلما صلى قال سعدٌ: قد سألت الله خيرا كثيرا وتعوذت من شرٍّ عظيم أو قال كبير، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون قومٌ يعتدون في الدعاء وحسبك أن تقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل».



قال الله تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يُلَيِّنُنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ ۗ﴾<sup>25</sup>  
 ﴿وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيهِ ۗ﴾<sup>26</sup> يُلَيِّنُهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ۗ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي ۗ﴾<sup>27</sup>  
 ﴿مَالِيهِ ۗ﴾<sup>28</sup> هَلَّاكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ ۗ ﴿﴾<sup>29</sup>



## بذور المعنى

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يُلَيِّنُنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ ۗ﴾:

ما تقدّم في حق من أوتي كتابه بيمينه يأتي في مقابله من أوتي كتابه بشماله؛ فالسعادة تحوّلت إلى شقاء، والحبور إلى حزن، ومحاولة إظهار الحساب إلى الحسرة والأسف ومحاولة إخفائه، والعيشة الراضية إلى العيشة الضنك.

والذي يؤتى كتابه بشماله أو من وراء ظهره كما في بعض السور، هو نفسه، ولكنها مرحلة في تلقي الكتاب أولاً بالشمال، ثم التحول إلى الورا، وترك اليد إلى الظهر حُزنا وحسرةً.

هذا الشقي من أصحاب الشمال يحدث نفسه أو يقول لمن

حوله: يا ليتني لم أطلع على كتابي، ولم أعرف ما يحويه من شؤم وسوء المآل.

❏ ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ﴾: أي إنني كنت مكذِّبًا بالحساب، ويقابله الذي كان مصدِّقًا به، وقد قال: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيهِ﴾. أي يا ليتني لم أعرف ما حسابيه، ولم أطلع على نتيجة عملي.

❏ ﴿يَلِيَّتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾: أي يا ليت حالتي، أو يا ليت مصيبتني كانت الموت والفناء؛ ومعناه وارد في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا:40].

❏ ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ﴾: أي من كان في الدنيا ذا مالٍ أو سلطان، يجد أن ماله لم يُغن عنه من الله شيئًا، ولم يمنع عنه سوء العاقبة؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل:11].

❏ ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ﴾: أي ما كان له من سلطة وحكم ومكانة قد هلك وتبخَّر؛ فلم ينفعه شيئًا، ولم يدفع عنه العذاب؛ كأنه لم يكن، مصداقًا لقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:88-89]. أو السلطان هو الحجَّة، وقد تلفت حجَّته ولم تنفعه، بل صارت له حسرةً وندامةً.



## التشغيل والتفعيل

❏ دومًا أتساءل: هل القرآن الكريم حين ينقل كلامًا وقولًا

من التاريخ، أو من أحداث الغيب؛ هل المقول باللفظ والمعنى، أم هو بالمعنى دون اللفظ؟ أرجح الاحتمال الثاني، لاختلاف اللغات وتعدُّدها، ولتباين القائلين مستوًى وبلاغة، ولكون ما جاء في القرآن من البلاغة لا يدرك مداه البشر.



### ❖ من الفكر إلى الفعل

- ❖ نسأل الله أن يؤتينا كتابنا بأيماننا، ولا يؤتينا كتابنا بشمالنا أو من وراء أظهرنا.
- ❖ لا شيء ينفع المرء يوم القيامة إلا إيمانه وعمله الصالح: ﴿مَا أَعْتَى عَنِّي مَالِيَهُ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهُ﴾.
- ❖ المال في الإسلام ليس مستنكراً لذاته، بل هو قوامٌ للحياة، أمر المؤمن بالسعي لتحصيله؛ وليكن ذلك من حلال، وفي حلال.
- ❖ لا حسرة بحق إلا حسرة يوم القيامة، فكل حسرة دونها تهون.





قال الله تعالى:

﴿خُدُّوهُ فَعَلُّوهُ﴾<sup>30</sup> ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ<sup>31</sup> ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا  
سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ<sup>32</sup>



### بنور المعنى

﴿خُدُّوهُ فَعَلُّوهُ﴾: كان الأمر لأصحاب اليمين، ولمن أوتي كتابه بيمينه إذناً منه تعالى أن يبدأ الحياة الأبدية السعيدة بقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾؛ وكأنه تعالى وجّه أمراً آخر لأصحاب الشمال، ولمن أوتي كتابه بشماله، أن يباشر حياة الشقاء التي أنذر بها؛ وبما أنه ليس أهلاً للخطاب، وجّه تعالى أمره للملائكة الزبانية، كمن يصدر الأمر للجن أن يأخذوا بتلابيب المجرم؛ فقال: ﴿خُدُّوهُ﴾ وأبعده عني؛ ثم اربطوه بالأغلال.

❏ ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوْهُ﴾: أدخلوه في الجحيم؛ وقدّم المفعول

الثاني على الفعل للاهتمام والحرص، وللفاصلة كذلك.

❏ ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾: أي لا تغلّوه

إلاّ بسلسلة فضيعة، طولها ومقدارها ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾؛ فهل هو الذراع المعروف من يد الإنسان، أم هو ذراعٌ من قياس آخر؟ لا نعرف؛ وإنما يكفي أن تكون سلسلة بيد زبانية، وطولها سبعون ذراعًا مما نعرف، حتى تكون ذات هول وشدة لا تطاق.

❏ ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ أي أدخلوه فيها ولقّوها حوله؛ أو اسلكوها هي

فيه؛ والمؤدّي واحد؛ إنه عذابٌ شديدٌ لا يحتمل، أليمٌ لا يطاق.

❏ والسِّلْكُ هو الخيطُ الذي ينظّم فيه الخرز ونحوه، أو الذي

يخاط به؛ ويقال سلّك الغزل لفّه على المسلكة، وهي آلة تلف عليها خيوط الغزل.



## التشغيل والتفعيل

❏ توظيف مصطلحات القياس في القرآن الكريم، من مثل:

الذراع، والمثقال، والساعة... هو مجال خصب للبحث؛ وللمقارنة بينها وبين أدوات القياس في اللغة، وفي العلوم.

بخاصّة إذا كانت هذه الأدوات وُظِّفت للآخرة، من مثل: الغدو، والرواح، والنهر، والكأس... وغيرها؛ ذلك أنّ أحكام الآخرة ليست كأحكام الدنيا، ومقاييس الآخرة ليست هي بالضرورة مقاييس الدنيا.

ليس للعقل أن يدرك أحكام الآخرة، ذلك أنها تدرك بالسمع ❏  
وبالنقل: «وأحكام تلك الدار ليست كهذه».



### • من الفكر إلى الفعل

• كلما شدد الله تعالى في وصف عذابه لعباده، دل ذلك على رحمته تعالى بهم؛ فإن من أحببك بالغ في وصف المصير، ومن أبغضك خفف من وصف المصير، رجاء أن تقع فيه.

• في الحديث الشريف: «إذا تشهد أحدكم فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، ومن شر المسيح الدجال، ثم يدعو لنفسه بما بدا له».

• نسأل الله تعالى أن يرحمنا في الدنيا، وفي الآخرة؛ فإننا لا نطبق سخطه ومقته وعذابه.



قال الله تعالى:

إِنَّهُوَ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿33﴾ وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿34﴾

### بذور المعنى

﴿إِنَّهُوَ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾: علل نعيم السعيد بقوله تعالى ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ ولم يفصل تعالى في الوصف؛ وعلل سبب شقاء الكافر بشيء من التفصيل؛ وكل قسيم يفسر قسيما آخر؛ فجزاء الذي أوتي كتابه بيمينه أنه كان يؤمن بالله العظيم، والكافر إنما استحق النار لأنه كان لا يؤمن بالله العظيم؛ والفريقان إنما ينالان جزاء ما أسلفا في الأيام الخالية.

﴿وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾: أي لا يأمر ولا يحث أحدا بإطعام المسكين، فكيف يفعله هو من حرّ ماله؛ فهو ﴿مَنَّاعٌ لِلْخَيْرِ﴾ [القلم: 12].

ثمة تقابلٌ بديعٌ بين قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾؛ فالذي يدخل الجنة، يطعم طعامها، وينعم بنعيمها، هو الذي لم يمنع الطعام عن المستحقين له في الدنيا، من المساكين والفقراء؛ أمّا البخيل الذي حرّم هؤلاء فجزاؤه الحرمان.

❏ والنكته الثانية أنّ سورة القلم حكّت عن أصحاب الجنة، الذين بخلوا بشمارهم على الفقراء، وفي سورة الحاقة جزاء من فعل ذلك ولم يتب، وهم قد تابوا، وهو تحريض لنا أن نترك البخل ونستجيب لداعي الكرم: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (6) فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (7) وَأَمَّا مَنْ مَجَلَّ وَاسْتَعْتَىٰ (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (9) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: 5-10].



## التشغيل والتفعيل

❏ قال القطب اطفيش: «الآية تضمّنت النهي عن أقبح العقائد وهو الكفر، وأشنع الرذائل وهو البخل».

❏ في الآية كما يقول الإمام الرازي «دليلاً قويا على عظم الجرم في حرمان المساكين: أحدهما، عطفه على الكفر وجعله قرينة له. والثاني، ذكر الحَضُّ دون الفعل؛ ليُعلم أنّ تارك الحَضُّ بهذه المنزلة، فكيف بمن يترك الفعل».

❏ استدلّ القائلون «إنّ الكافر مخاطب بفروع الشريعة» بهذه

الآية؛ ولذلك فُهِم العقاب على أنه شاملٌ لمن ترك الصلاة  
والزكاة، وعلى البخل ومنع الطعام...



### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين، ويقول: «خلعنا نصف السلسلة بالإيمان، أفلا نخلع النصف الباقي بالصدقة؟!».

❖ الإيمان باطنٌ وظاهرٌ، سرٌّ وعلنٌ؛ ومن قال إني مؤمن، ولم يأت ما يدعو إليه الإيمان، فهو كذاب أفك مبینٌ؛ فالفعل في هذه الآية هو الحُضُّ على طعام المسكين، والإيمان هو الإقرار لله العظيم بالوحدانية وبالألوهية والربوبية... والعزم على طاعته في الصغير والكبير.



قال الله تعالى:

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا  
يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾

### بذور المعنى

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُهُنَا حَمِيمٌ﴾: هو في الدنيا لم يؤمن بالله العظيم، ولم ينفع الخلق بالكرم والإحسان؛ فأنى يكون له يوم القيامة ناصرٌ وشفيعٌ؟ فما الله تعالى بشفيعه، وما أحد من الخلق بصديقه الذي يحميه من العذاب؛ والعلاقة الحميمة هي العلاقة المتينة والقوية. ويوم القيامة هم سيعلنونها ويعترفون بها إذ يقولون: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: 100-101].

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾: الغسلين هو ما يسيل من جلود أهل النار من قيح وغيره، وأصله ما يخرج من الثوب ونحوه

عند الغسل من لونٍ ودرنٍ، أي أصله اللغوي من «الغسل»؛ فهو قد جمع قبحِ الوسخ والريح واللونِ جميعاً؛ وهذا الغسلين هو الذي يكون طعام أهل النار.

ومن طعامهم أيضا نبات شائك يسمّى الضريع، قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيْعٍ﴾ [الغاشية:6]. ومن شرابهم الماء المغليّ الحميم: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيْمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:15].

﴿لَا يَأْكُلُهُوَ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾: هذا الطعام هو جزاء من أخطأ الحق، وجانب الإيمان، ولم يحض على الخير؛ فهم مشركون فاسقون ظالمون، قد ركبوا الخطايا حتى صارت وصفا لهم، وركبتهم الخطيئة حتى صاروا يُعرفون بها.

أمّا من صان نفسه من الشرك واجترأ الخطايا فهو في مأمن يوم القيامة، ولا يطعم إلا الطيب من طعام أهل الجنة؛ نسأل الله أن يحشرنا في زمرةهم.



## التشغيل والتفعيل

فُصد من نفي الحميم عن الكفار أن لا ينتظر الناس ناصرا، ولا يغتروا بحميم، يدفع عنهم عذاب يوم القيامة؛ فما ينفعهم سوى إيمانهم الصادق، وعملهم الصالح.

روى الحاكم أنّ رسول الله ﷺ قال: «لو أنّ دلوًا من غسلين يُهراق في الدنيا لأنتن أهلها» [أخرج الحاكم وصححه].



سئل حَبْر الأمة ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن «الغسلين» فقال: «لا أدري ما الغسلين». ومن الحديث نأخذ وجوب التحري في تفسير كلام الله تعالى، وعدم جواز القول بغير علم.



### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ من أراد أن يكون له حميم يوم القيامة، فليتخيره في الدنيا؛ وذلك بنفع الخلق، والحض على طعام المسكين، والكرم في الفعل، والإحسان في القول.

❖ يتوسَّط «الحب» المسيحية وكتابها الإنجيل؛ أمَّا الإسلام وكتابه القرآن، فمحوره هو «فعل الخير وترك الشر، على أساس من الإيمان الصادق».

❖ للقراءة: «دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين» مالك بن نبي.



قال الله تعالى:

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ  
رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا  
بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ ۝ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝

### بذور المعنى

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾: من صيغ القسم عند العرب قولهم ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ وهي لتحقيق القسم، وأصلها أنها امتناع من القسم يُخرج صاحبه من الحنث؛ فشاع استعمالها في كل قسم يراد تحقيقه وتأكيده؛ وهذا أولى من أن تعتبر ﴿لَا﴾ زائدة، إذ لا زيادة في كلام الله تعالى، عند بعض المفسرين.

وما تبصرون هو ما تشاهدون من آثار قدرة الله تعالى، وجميع ما يرى من أرض وسماء، وما فيهما وما بينهما؛ وحتى ما يبصر بعين الإحساس والمشاعر مثل الحب والبغض، والجلم والغضب.

❖ ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾: الله جَلَّ جَلَالُهُ هو أعظم ما لا تبصرون، إذ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾؛ ثم كل ما كان مغيباً عنكم؛ سواء ما كان من غيب كليّ مثل الآخرة، والجنة والنار، وحال أهل القبر، والجن، والملائكة؛ أو ما كان من الغيب الجزئيّ، أي ما لا تبصرون من مخلوقات، وأعراض في كون الله تعالى، مما لا يحصيه عدّ، ولا يتصوره عقل.

❖ ولقد جمعت صيغة الآية: ﴿مَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ الوجود كلّهُ؛ فلا شيء يخرج من أن يكون إمّا «مما لا تبصرون» وهو الغالب، أو «مما تبصرون» وهو قليل من كثير، ونزّر يسير من وجود واسع ممتد كبير.

❖ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾: أي القرآن الكريم، الذي كذب به المجرمون؛ هو قول رسول بالغ الكرم، وهو سيدنا محمد ﷺ؛ نقله من ربه بأمانة فهو الأمين، وبكرم وهو الكريم، وبصدق وهو الصادق. وصفة الكرم للرسول ﷺ نقيض صفة الذي ﴿لَا يَخُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ السابق ذكرها.

❖ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلٍ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ﴾: كفّار قريش اتهموا رسول الله ﷺ بجملة من الصفات وقد أرادوا تفنيد القرآن الذي جاء به ﷺ؛ إذ لم يقدرُوا على الإتيان بمثله، فقالوا: مجنون، وساحر، وكاهن... ولكن لم يقدرُوا أن يتهموه بالكذب صراحةً؛ لأنه معلوم عندهم بالصدق. فردّ الله

تعالى عليهم في جملة من السور والآيات، منها أنه ليس بقول شاعر؛ وما قولهم هذا إلا أنهم لا يؤمنون إلا قليلاً، ولو آمنوا حقاً لما تجرؤوا على الله، ولا على رسوله وكلامه.

❏ ﴿وَلَا يَقُولِ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ﴾: وكذلك ليس بقول كاهن، فقول الكهّان معلوم، وليس فيه من الحكمة والوعظ والعلم ما في القرآن؛ وإنما هو خلطٌ وسجعٌ ووهمٌ؛ ولو أنهم تأملوا ونظروا وتذكروا لما قالوا ما قالوا، ولما افتروا على الله ولا على رسوله كذباً.

❏ ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾: مطلق القول في كتاب الله تعالى، ومجمل الإخبار عن القرآن الكريم أنه ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ ولو صدق الناس لجعلوا هذه الآية تعريفاً جامعاً مانعاً للقرآن الكريم.

❏ ومن رب العالمين، أي من ربّ الرسل، والمؤمنين، والمكذبين، والشعراء، والكهان... وجميع من يقول ومن لا يقول؛ ومن يدرك ومن لا يدرك؛ فهو مالكٌ أمره، قادرٌ عليه؛ وهو الذي نزل القرآن منه سبحانه.



## التشغيل والتفعيل

❏ تعلمنا الآية ردّ الكذب والافتراء بالحجّة والبرهان، لا

بالسبِّ والتنقيص؛ ولو شاء الله تعالى لقهَر القائلين الأفاكين،  
ولكنه حاورهم وساق لهم الدليل، لعلهم يراعون فيتقون  
ويتوبون.

❏ تنفتح الآيات على سعة الوجود، وعلى عوالم فوق عالم  
المادة المحسوس: الكون غير المرئي، والغيب النسبي،  
والغيب الكلي، بصيغة ﴿مَا لَا تُبْصِرُونَ﴾؛ وبالتالي فهي  
تفضح قصر وسائل البحث والعلم لدى الإنسان؛ فهو رهين  
بصر وسمع وجوارح قاصرة عاجزة.



## ❦ من الفكر إلى الفعل

❦ لا بد من مراجعة نظرية المعرفة على ضوء عالم الشهود، وعالم الغيب؛ خلاف الرؤية الكونية المادية؛ التي لا تقتصر إلا على المحسوس والمحسوب.

❦ الإيمان بالله تعالى، وبصفات الكمال: العلم، والصدق، والحكمة... كفيل بمنع الإنسان من الوقوع في حالة الشك والشرك؛ التي مردها إلى الجهل والجهالة بحقيقة رب العزة سبحانه، وهو القائل: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

❦ للقراءة: «البحث العلمي بنماذجه الأساسية» لأحمد الصيداوي؛ و«مقاربة في فهم البحث العلمي» لمحمد باباعمي.



قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾

### بذور المعنى

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾: نزلت هذه الآية على منهج الاستدلال العقلي الرياضي، وهو ما عُرف بـ«البرهان بالخلف»؛ أي إذا بطل النقيض صحّت القضية، وإذا ثبت النقيض فسدت القضية. والنقيض هنا هو أنّ الله تعالى القادر على كل شيء، لو وجد من يتقوّل عليه بعض الأقاويل لأهلكه، ولما أقرّه على ذلك؛ ولقد ثبت أنّ الله تعالى لم يهلك رسوله الكريم ﷺ، وإنما أقرّه ودافع عنه ونصره؛ فثبت بذلك أنّه لم يتقوّل على الله شيئاً.

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾: على افتراض أنّه تقوّل على الله فإننا

سنأخذه بقوة؛ واليمين اليد اليمنى كني بها عن الاهتمام بالتمكّن من المأخوذ؛ أو لأمسكناه بيمينه، وهي نقطة قوّة الإنسان غالباً، فإذا سُلت أو عطّلت هُزم وُغلب وصُرع؛ واليمين يكون كذلك بمعنى الحقّ، أي انتقمنا منه بالحقّ.

❏ **﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾**: والوتين هو الشريان الرئيس الذي يغذيّ جسم الإنسان بالدم النقيّ الخارج من القلب؛ قال تعالى: **﴿وَوَحْنٌ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾** [ق:16]. وقطعه هو حرمانه من الحياة؛ أي لو فعل ذلك افتراضاً لما بقي حياً، ولما كان له أملٌ من حياة؛ وإذ كان حياً يرزق بينكم فهذا دليل آخر على أنّ ما جاء به هو من عند الله تعالى.

❏ **﴿فَمَا مِنْكُمْ مَّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾**: لا أحد من الناس يملك أن يحول بين متجّل للوحي وبين الله تعالى؛ ولو فعل ذلك محمد ﷺ كما قدر أحدٌ منكم أن ينجيّه من عذاب الله؛ ذلك أنه إنما كان رسولا لله تعالى بصدقه لا بكذبه، وليس الكذّاب برسول، ولا الرسول بكذّاب.



## التشغيل والتفعيل

❏ البرهان بالخلف: هي برهنة؛ أساسها إثبات صحة المطلوب بإبطال نقيضه، أو فساد المطلوب بإثبات نقيضه.

❏ الله سبحانه غيورٌ على كلامه، غيورٌ على الحقّ؛ فلا أحد من خلقه يملك أن يتقولّ على الله سبحانه؛ ومن تجرّأ على ذلك

وكذب على الله فهو أظلمُ الناس، وله من الله عذابٌ شديدٌ:  
 ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا  
 جَاءَهُ﴾ [العنكبوت: 68].



## ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ صيغ تكذيب الوحي والتشكيك فيه تنوّعت في عصرنا؛ ووجب على العالم المسلم أن يدحضها، ويعمل على ترسيخ الحق في قلوب الناشئة بخاصّة.

❖ ذكر عن الشيخ محمد بن ادريسو أنه وصل في تفسيره إلى هذه الآية، فخاف أن يتقول على الله تعالى ما لم يقل، فدعا بسطل من ماء، وألقى مسودة التفسير فيه، فانمحي، غير أننا وجدنا جزءاً من التفسير بعد ذلك، ولم نجده كاملاً. والرواية منقولة عن الحاج صالح بزملال عن أبي إسحاق اطفيش،

❖ انظر - «اليمن والبركة في تفسير الهدى والرحمة» امحمد بن سليمان ابن دريسو.



قال الله تعالى:

وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَتَعْلَمُونَ أَنَّمِنكُمْ مُّكَدِّبِينَ ﴿٤٩﴾  
وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ  
رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

### بذور المعنى

﴿وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: سياق الجملة: إنه لقول رسول كريم، وإنه لتذكرة للمتقين؛ وكونه تذكرة أي هو يذكر الناس ما غفلوا عنه، وما نسوه، ويعلمهم ما يجب أن يعلموه من توحيد رب العالمين، وما يليق من الأخلاق الجليلة، والأفعال الحميدة.

﴿وَإِنَّا لَتَعْلَمُونَ أَنَّمِنكُمْ مُّكَدِّبِينَ﴾: ولكن التذكرة والذكرى لا تنفع إلا من اتقى وآمن ولم يعرض ولم يتكبر: ﴿وَذَكَّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 55].

﴿وَإِنَّا لَتَعْلَمُونَ أَنَّمِنكُمْ مُّكَدِّبِينَ﴾: بمعنى أننا أرسلنا رسولنا

بالهدى وبالقرآن، ونحن نعلم أنه سيكون من بينكم من يكذب به، ومن يقول هو شاعرٌ، وهو كاهنٌ؛ وعلّمنا لم يمنعنا من إنزاله والتذكير به؛ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:42]. وبين الجملتين تقابلٌ: فالقرآن الذي ينفع المتقين، هو نفسه الذي يكذب به المكذبون؛ فيكون سببا لنجاة الأولين وهلاك الآخرين.

❏ ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾: الحسرة الحزن والأسف والندم الشديد المتكرّر على شيءٍ فائت مرغوب فيه لم يتحقّق، أو مرغوب عنه نزل وتحقّق.

❏ فالقرآن الكريم هو حسرة للمكذّبين وللكافرين في الدنيا، بحيث يفضحهم، ويخالط مكنون قلوبهم، ويجعلهم دوماً في حزن وندم أنهم لم يتبعوا الحقّ، ولم يؤمنوا به؛ وهو حسرةٌ لهم يوم القيامة، أنه كان بين أظهرهم، وأنه قد نجا قومٌ باتباعه، أمّا هم فقد خسروا به وخسروا لأجل إنكاره، ولم ينفعهم، ولم ينجّهم من عذاب شديد.

❏ ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾: هو أعلى مراتب العلم بعد علم اليقين، وعين اليقين؛ فحقّ اليقين هو الشهادة والشهود، وبه يحصل العلم المحقّق الذي لا تردّه الجوارح.

❏ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾: لكلّ ما تقدّم من وصف القرآن، ومن نفي انتحاله والكذب بالوحي، ومن مقامات يعلو إليها المتّقون المؤمنون، ودركات ينحط إليها المكذبون

الضالون... لكل ذلك نزه المولى عزَّ وجلَّ عن النقائص، واعتقد فيه الاعتقاد الكامل المؤدِّي إلى العمل الصالح.

❏ وتسبيح اسم المولى سبحانه تسبيحٌ للمسمَّى جَلَّ جَلالُهُ.

❏ ويشمل مضمون الآية استمرار مدلول رسالة محمد ﷺ إلى يوم الدين: أي ما دام الأمر على ما تقدَّم، فرسالته صادقة وملزمة إلى يوم الدين.

❏ لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» [رواه أحمد].



## التشغيل والتفعيل

❏ «لو أنك وضعت نسخة من المصحف الشريف بين يدي عجوز أعجمية، لا تعرف من العربية شيئاً، إلا ما تصلِّي به على مشقة؛ ثم رأيتها جالسةً بوقار، تضمُّه إلى صدرها، وهي تبكي بعيون منهمة، لا تلوي على أحدٍ، ولا تأبه لما حولها ولا لمن حولها... تيقنت أن المرأة ممن يتفنن في معاني الحبِّ للكتاب الحكيم، وهي تمارس لوازم الحبِّ لهذا الكتاب الكريم...

❏ أمّا إذا رأيت منغمساً في تفريع ألفاظ القرآن إعراباً وبلاغة وبيانا، أو من يحيط به بعلموم مختلفة مما تخصَّص فيه؛ ثم هو - مع ذلك - لا يتحرَّك قلبه قيد أنملة، ولا يعبر عن



هو اه هنيهة؁ ولا يصدر ذلك عملا ينير حياته... فهمت أن  
المسكين ابتلي بجفاء القلب؁ وهزم بجفاف الوجدان...». □□  
من أحب كلام الله نفعه؁ ومن لم يحبه كان عليه حجة وأضله:  
﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة:26].



## • من الفكر إلى الفعل

• من اتقى حبَّ الدنيا فهو يتذكر بالقرآن وينتفع به، وأما من مال إليها؛ فإنه يكذب القرآن ولا يمثل ما جاء به من الحق.

• قال النبي ﷺ: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

• للقراءة: «في حب كلام الله» محمد باباعمي.





قال الله تعالى:

سَالَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقِيعٍ ① لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ②  
مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ③

### بذور المعنى

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: بسم الله فاتحة كل فضل، وخاتمة كل خير، وعماد كل أمل، وقاعدة كل عمل؛ ألا إن من خسر الرهان كانت عاقبته حسرة مع الكافرين، في يوم تضرب فيه نواميس الكون، وتتقطع فيه الأرحام؛ أما من صدق ووفى، فمصيره مكرمة في الجنان، خالداً فيها أبداً؛ وتلك رحمة الله تعالى بعباده أن يبين لهم الحق من الباطل، والخير من الشر، وأمدّهم بما به يفصلون ويختارون، بلا قهر ولا جبر: ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ (04) عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾.

❏ ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقِيعٍ﴾: من الآيات التي استشكل على المفسرين معناها، وبخاصة في معنى ﴿سَأَلَ﴾ أو «سأل»: هل معناه الاستفسار، أم الطلب، أم الدعاء، أم هو مضمّن معنى الاهتمام والاعتناء؟

❏ وهل الباء زائدة ليلائم معنى الطلب: «سأل عذابا»، أو هي بمعنى «عن» أي: «سأل عن عذاب».

❏ أو ﴿سَأَلَ﴾ بالتسهيل، حسب قراءة ورش، بمعنى السيلان؟ فيكون المعنى كما ورد عن ثابت بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «سال وادٍ من أودية جهنم، بعذاب واقع».

❏ قال صاحب «الميزان»: «ومأل الوجوه واحد، وهو طلب العذاب من الله كفرًا وعتوًّا».

❏ ولقد أجيب هؤلاء الكفار الذين سألوا العذاب وطلبوه بذكر أوصاف، تدلُّ على إجابة دعائهم بنوع من التحقير والتهكم: ﴿بِعَذَابٍ وَقِيعٍ﴾، ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾.

❏ ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾: هذا العذاب الذي استعجلتموه ورد بيانه في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج:47]؛ هو لا محالة واقع، وهو حين يأتي لا يملك أحد دفعه ولا رده، كما لا يملك أحد أن ينجيكم منه: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ [الأعراف:156]، ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (176) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ

الْمُنْدَرِينَ ﴿[الصفات: 176-177].

❏ ﴿مَنْ اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ﴾: متعلق بقوله ﴿دَافِعٌ﴾، أي لا دافع لهذا العذاب من جانب الله تعالى، ولو أمكن أن يندفع لما كان ذلك إلاً بقدرة الله سبحانه، ومشيتته وإرادته وحده، جَلَّ جَلَالُهُ.

❏ والمعارج هي الدَّرَجَاتُ والمقاماتُ والمصاعدُ؛ وفي مصادر العقيدة: «ذو المعارج» اسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الذي يُعْرَجُ إليه بالأرواح والأعمال، وهو صاحب العلوِّ والعظمةِ والدَّرَجَاتِ الفواضِلِ والنَّعمِ، وخالق السموات التي ترقى فيها الملائكة من سماءٍ إلى سماءٍ.

❏ ولله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوم القيامة معارج الملكوت، ومقاماتٍ مترتبةً علوًّا وشرَّفًا؛ والملائكة والروح ترقى فيها وتعلو، حسب درجة كلٍّ منهم وفضله وقُربيه. وهي معارج على الحقيقة لا على المجاز.

❏ وقيل معنى المعارج: الدرجات التي يصعد فيها الإيمان الحقُّ والعمل الصالح: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10].

❏ وقيل هي مقاماتُ القُرب من الله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: 163]، ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: 15].

❏ وكلُّ المعاني تؤوّل إلى معنى واحدٍ، وهو أنّ أيّ عروج، لأيّ مخلوق من ملائكةٍ وإنسٍ وجنٍّ وغيرهم، إنما هو بأمرٍ من الله، وإلى الله، وتفَضُّلاً من الله؛ وهو عروج حقيقيٍّ ومعنويٍّ. ولا بأس من الجمع بين الحقيقة والمجاز عند من يجيزه.



### التشغيل والتفعيل

❏ سُميت السورة باسم «المعارج» مستنبطةً من هذه الآيات؛ لفضلها ومكانتها؛ وإنما تتقى العناوين من لبّ المضامين وروحها.

❏ نطالع في التفاسير حواراً شيقاً عن تصنيف السورة بين المكيّ والمدنيّ؛ والآية التي أشكّلت هي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾؛ فمن اعتبر الحقّ المعلوم هو الزكاة، عدّ الآية مدنية، وألحق بها آياتٍ من السباق واللحاق؛ ومن فهم الحقّ المعلوم أنه حقٌّ يسمّيه صاحبه في ماله من غير الزكاة، عدّ الآية مكيّة، وبالتبع تكون السورة كلّها مكية.



### • من الفكر إلى الفعل

- واجبٌ لمن تعرج روجه وأعماله إلى الله سبحانه أن يحسنها ويزكيها، لتؤول إلى هنالك صافيةً طاهرة، مؤمنة مطهرة، فتلقى القبول والرضا، وتنزل أعلى المقامات وأرفع الدرجات.
- مما يعرج إلى السماء كل يوم: «صلاة المؤمن»، أمّا صلاة المنافق فتغلق أمامها السماء، وتعود إلى صاحبها وبالاً.
- للقراءة: «معارج الآمال على مدارج الكمال» نور الدين السالمي.



قال الله تعالى:

تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۚ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝ ٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ ٦ وَتَرِيهِ قَرِيبًا ۝ ٧

### بذور المعنى

❏ ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾: لا بدّ من تأويل صفة العروج إلى الله تعالى، على أنها لا تُفيد المكان؛ ولكن تفيد انتهاء الأمور إلى مُرادَه تعالى: ﴿وَالِإِيهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ﴾ [هود:123]، والمراد هو الانتهاء إلى موضع العزّ والكرامة: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهِدِينَ﴾ [الصفات:99].

❏ وقال بعض: ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى عرشه، فتكون المكانية للعرش لا لله تعالى؛ قال الألوسي: «ومعظم السلف يعدّون ذلك من المتشابه، مع تنزيهه عَزَّجَلَّ عن المكان والجسمية واللوازم التي لا تليق بشأن الألوهية».

❏ ذهب أكثر المفسرين إلى أن ﴿وَالرُّوحُ﴾ في الآية معناه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأُفْرِدَ بالذكر وهو من الملائكة، لفضله ومقامه؛ ولكونه أول الملائكة نزولا وآخرهم صعودا.

❏ ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: لليوم في القرآن الكريم معانٍ عديدة، يحددها السياق؛ منها «اليوم الطبيعي» الأرضي وهو الغالب؛ ومنها «يوم القيامة» الذي لا يخضع لضوابط الفيزياء؛ ومنها «اليوم الكوني».

❏ في كتاب «مفهوم الزمن في القرآن الكريم» نقراً: «إذا كان مقدار اليوم الطبيعي لا يتعدى 24 ساعة، وإذا كان يوم القيامة يوماً بلا نهاية؛ فإنَّ اليوم الكونيَّ يومٌ بين هذين اليومين... يسهل علينا بعد تقدُّم علم الفلك أن نتصوره».

❏ وقد يكون اليوم في هذه الآية كذلك كناية عن طول اليوم، لا مقدارا زمنيا. والله أعلم.

❏ ولعلَّ الأصوب أن نسمي هذا اليوم: «يوم العروج»، أو «يوم العندية» لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ [الحج: 47].

❏ ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾: الخطاب لرسول الله ﷺ، مواساة له.

❏ والصبر الجميل هو الذي لا يشكو فيه صاحبه لأحد إلاَّ الله تعالى؛ أو هو الصبر الذي لا يغير صاحبه عمّا كان عليه من قبل.

- ❖ ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾: إشارة إلى النضر بن الحارث، أو إلى مطلق كفَّار قريش، ثم يعمَّم على الكفار جميعاً؛ يرونه بعيداً أي مستحيلاً لا يقع، أو استبعده على افتراض الوقوع.
- ❖ ﴿وَنَزِيهٌ قَرِيبًا﴾: أمَّا ما نعلمه علماً حقيقاً فهو أنه قريب من الإمكان؛ وهو على أسلوب المشاكلة؛ إذ الله تعالى لا يراه فقط، وإنما هو الذي يأتي به متى يشاء، وكيف يشاء، وأنى يشاء؛ فالله جَلَّ جَلَالُهُ مطلق القدرة لا يحده خلقٌ من خلقه.



### التشغيل والتفعيل

- ❖ عن أبي سعيد الخدري قال: قيل: يا رسول الله، يومٌ كان مقداره خمسين ألف سنة، ما أطول هذا اليوم! فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليُخَفَّفَ على المؤمن حتى يكون أخفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبةٍ يُصَلِّيها في الدنيا». رواه الهيثمي في «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد».
- ❖ إنَّ الموقف المذكور في الآية وإن طال هو سببٌ لمزيد السعادة والراحة للمؤمن، وهو سببٌ لمزيد الغمِّ والحزن للكافر؛ حشرنا الله تعالى مع عباده المؤمنين، آمين.
- ❖ لا يردُّ «الروح» مقروناً بالملائكة أو بنزول الوحي، في القرآن الكريم، إلاّ مفرداً: ﴿يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل:2]، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء:193]...

و«الروح» أعظم من الملائكة قدرا، وهو ملكٌ أو هو مقامٌ من مقامات القرب إلى نور الله تعالى.

❏ سئل ابن تيمية عن «الهجر الجميل، والصفح الجميل، والصبر الجميل» فأجاب: «الهجر الجميل هجرٌ بلا أذى، والصفح الجميل صفحٌ بلا عتاب، والصبر الجميل صبرٌ بلا شكوى».

❏ ورد في القرآن الكريم: السَّرَّاحُ الجميل، والهَجْرُ الجميل. وهي جميعا تدور على نفس المعنى؛ وهو ما كان قاسياً على النفس، وترك فيه صاحبه الإضرار للغير والانتصار للنفس، وابتغى به وجه الله تعالى، وما عند الله سبحانه.

❏ في التراث الإسلامي مؤلفات تحمل عناوين وظفت صفة «الجميل»، منها: «النقد الجليل للعتب الجميل» لأبي إسحاق اطفيش؛ و«العتب الجميل على أهل الجرح والتعديل» لمحمد بن عقيل العلوي...



### ❦ من الفكر إلى الفعل

❦ اللهم خفف عنا يوم الحساب، واجعل الجنة مآبنا، وارض عنا يا أرحم الراحمين.

❦ عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إِنَّ نَاسًا مِنْ الْأَنْصَارِ، سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفَدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أُدْخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفُ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ».

❦ للقراءة: «مفهوم الزمن في القرآن الكريم» محمد باباعمي؛ و«الزمان في الفكر الإسلامي» إبراهيم العاني. و«نظام الزمان» كريستوف بوميان.



قال الله تعالى:

يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۖ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۖ وَلَا  
يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۗ يُبْصَرُونََهُمْ... ۙ

### بذور المعنى

❖ ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾: المهل هو مُذاب المعادن من فضةٍ ونحاسٍ وذهبٍ وغيرها؛ وهو ما يتبقى من درديّ الزيت الثقيل، وهو عكر القطران.

❖ الكون كله يضطرب ويخرج عن مألوفه عند قيام الساعة؛ ومما يقع يومها أنّ السماء تذوب من شدة الحرّ، ولا يملك أحدٌ معرفة كيفية ذلك؛ ولا ريب أنّ البحار والمياه حين تشتعل - بأمر الله - فإنها تحرق كلّ شيء.

❖ ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾: أمّا العهن فهو الصوف، وقيل: الصوف المصبوغ ألواناً؛ وردّ البعض ذلك إلى أنّ الجبال

منها ﴿جُدُدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَايِبُ سُودٌ﴾ [فاطر: 27].  
 وزيد في سورة القارعة وصف المنفوش، أي الصوف  
 المتشعث: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: 5].

❏ ﴿وَلَا يُسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾: الحميم هو القريب الذي تهتمُّ بشأنه  
 وتنصُّره، وتقف إلى جواره عند الملمات؛ ولشدة اشتغال  
 الناس بأنفسهم، وانشغالهم عن الآخرين؛ فإن الحميم يفقد  
 عاداته، ولا يسأل عن حميمه، ولا يعنيه من أمره شيء، بل  
 يتقطع النسب بين الناس يومئذ: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا  
 شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: 18]. وفي سورة الحاقة: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ  
 هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ [الحاقة: 35]. ولعلَّ عدم السؤال لأنَّ الأمر ظاهرٌ  
 على وجوههم، فلا حاجة للسؤال: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ﴾  
 [عبس: 38]، ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ [عبس: 40]. ﴿يُعْرَفُ  
 الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ [الرحمن: 41].

❏ ﴿يُبْصَرُونَهُمْ﴾: أي يرى الأحماء بعضهم بعضًا فلا يسألونهم  
 عن حالهم، وهم قد بصروهم وعرفوهم وعرفوا حالهم، فلا  
 يسألونهم هل سعدوا أم شقوا؟ وما ذلك إلا لأنَّ السعيد  
 معلومٌ، والشقي معلومٌ: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ  
 بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾.

هل يمكن أن نستفيد مما ورد في كتاب الله تعالى عن هلاك الكون، عند قيام الساعة، في صياغة نظريات عن نشأة الكون؛ باعتبار القاعدة الكلية: «الهدم يكون على عكس البناء؟» سؤال للبحث.

«الكاف» للتشبيه: ﴿كَالْمُهْلِ﴾، ﴿كَالْعِهْنِ﴾؛ وليست للتطابق، أي لن تتحول السماء مهلا، والجبال عهنا، بالمعنى الحرفي؛ إنما «مثل» و«ك»؛ ولعلها بذلك تفتح المجال للتداول والبحث، ولا تقتل المعنى بالافتراض الواحد المغلق؟

المهمل مما لا يُعلم معناه بالتحديد، وصِفْتُهُ أَنَّهُ معدن مذاب، سواء أكان: فضة، أو ذهباً، أو نحاساً؛ وذكر كذلك أنه القطران ودرديّ الزيت؛ وهل يقاس عليه كلُّ معدن مذاب، ولو لم يكن معروفاً عند المفسرين في القديم؟ ثم هل المعنى اللغويُّ دالٌّ على حقيقة المعنى العلميِّ؟ أم نسقط المعنى العلمي الذي توصلنا إليه على الآية بأثر رجعيٍّ؟ المسألة للبحث.



## ❖ من الفكر إلى الفعل

- ❖ ماذا يستفاد من آيات «قيام الساعة» في بناء إيمان الإنسان، وتحريك مدلول العبودية عنده، والاستسلام لذي الجلال سبحانه؛ دون أن يهول أو يهون من شأنها؟
- ❖ كيف نجعل من آيات «هلاك الكون» منطلقات لفهم تركيبية الكون، وتاريخه، وحجمه...؟
- ❖ الخُلة الصادقة هي التي تصفو في الدنيا، وتدوم إلى يوم القيامة؛ ومنها خلة «السبعة الذين يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله»
- ❖ للقراءة: «الصدقة والصدق» أبو حيان التوحيدي؛ و«موجز تاريخ الزمان» ستيفن هوكينغ.



قال الله تعالى:

يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾  
 وَصُحْبَتِيهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ  
 جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾

### بذور المعنى

﴿يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾: هذه الآية من أشد الآيات هولاً في وصف أحوال يوم القيامة؛ ذلك أن الأرحام تنقطع، وتزول العاطفة التي بين الأم وابنتها، والأب وابنه... ونظيرها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المومنون: 101].

المجرم يومها يتمنى ويحب لو أنه يفدى بجميع بنيه لينجو هو من النار، ويدخلوها هم؛ لا رحمة في قلبه ولا شفقة عليهم. والمجرم في الآية الكافر، ومن يصلى النار ويدخلها

بذنوبه ومعاصيه.

❖ بدأت الآية بالبنين لأنهم غالباً هم الذين يضحى لأجلهم ولا يُفتدى بهم، أمّا في الآخرة فتتبدّل الأحوال، وتتغيّر المعايير؛ ولا يعني كلّ إنسان إلاّ أن يقول: نفسي، نفسي.

❖ ﴿وَصُحْبَتَيْهِ وَأَخِيهِ﴾: الصحابة هي الزوجة، قدّمها لنفعها وشفقتّه بها أكثر من الأخ إذا صلّحت؛ ثم ذكر الأخ وهو رحمٌ حميمٌ.

❖ ﴿وَقَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾: هم القبيلة والأدُنُون من الأقربين، وهم الأقرباء المفصول منهم، أي المستخرج منهم، فتشمل الآباء والأمهات.

❖ ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنَجِّيهِ﴾: من في الأرض شاملٌ لجميع العقلاء، من إنس وجنّ وملائكة، وجميع غير العقلاء من جمادات ونباتات وحيوانات وغيرها؛ ذلك أن ﴿وَمَنْ﴾ تفيد العاقل، ولكنها للتغليب قد تفيد غير العاقل كذلك. واللفظ كناية عن الخلق كلهم جميعاً. ولو استطاع أن يفدي نفسه بالخلق جميعاً لفعل، ولكن هيئات.

❖ ﴿ثُمَّ يُنَجِّيهِ﴾: ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإنجاء، ولأنه غير متحقق، ولا يكون له ما تمنى.



## التشغيل والتفعيل

☐ الفداء هو: ما يُعطى عِوَضًا لِإِنْقَاذِ مَنْ تَبِعَهُ، والمعنى هنا لو يفتردي نفسه وينقذها مقابل بنيه وصاحبته وأخيه... وتقول العرب: «فداك أُمِّي وأبِي».

☐ البنات داخلات في البنين،. وزعم البعض أنَّ البنين خاصُّ بالذكور دون الإناث، وعلَّل ذلك بأنَّ العرب قد يرغبون عنهنَّ، وهنَّ غير مرضيات عندهم أساسًا. والصواب أنه لفظ أعمُّ، يشمل الذكور والإناث، وإذا قوبل بالإناث كان للذكور فقط: كأن يقال: «خَلَّفَ بنين وبنات».

☐ هذه الآيات والتي قبلها فيها كناية عن اضطراب المخلوقات، وعن فكِّ التوازن الذي أودعه الله تعالى في الكون؛ ففي الدنيا ثمة تماسكٌ ورحمٌ وعلاقاتٌ وروابطٌ، وعند قيام الساعة تنفكُّ هذه الروابطُ والعلاقاتُ، ويزول التماسكُ، وتتقطعُّ الأرحامُ.



### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ من أراد أن يحشر مع رحمة يوم القيامة، وأن تلحق به ذريته في الجنة، فليربهم على الإيمان والعمل الصالح، وعلى الإحسان ونفع الخلق.

❖ في الحديث الشريف: «الولد مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ» وزيد «وَمَحْزَنَةٌ وَمَجْهَلَةٌ» أي أنهم يحملون آباءهم وأمهاتهم على البخل والجبن، وعلى الحزن والجهل؛ ويكونون سببا لمنع الصدقة، والامتناع عن الجهاد... وغيرها. وإنهم كذلك «لقرة العين، وثمره الفؤاد».

❖ للقراءة: «تربية الأولاد في الإسلام» تأليف عبد الله ناصح علوان.



قال الله تعالى:

كَلَّا إِنَّهَا لَلظَى ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنَ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾  
وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾

### بذور المعنى

﴿كَلَّا إِنَّهَا لَلظَى﴾: ردعٌ للمجرم الذي يودُّ لو يفتدي، على أن الافتداء لا ينفعه يوم الجزاء والحساب؛ أو هي هنا لردع الناس عن اتباع سبيل الكفار، الموجبة لما أعدَّ الله لهم من عذاب؛ والأرجح أنها لردع المجرم نفسه، وهو تصريحٌ أنه لا ينجو عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿لَلظَى﴾ هو لهب النار الخالص الذي لا دخان فيه؛ وهو اسم علم على النار التي هي أشدُّ النيران حرارةً.

﴿إِنَّهَا لَلظَى﴾ للنار، ولم تذكر من قبل؛ إلا أن ذكر العذاب دلَّ عليها دلالة سياق.

❖ ﴿نَزَاعَةٌ لِّلشَّوَى﴾: أي هي كثيرة القلع، و«الشَّوى» الأطراف، أو جِلْدُ الرَّأْسِ، أو محاسِنُ الوجه؛ فهذه النار اللَّطْيُ دائمةٌ في نزعِ أطرافِ المجرم، وكوي جِلْدَةَ رَأْسِهِ، وتشويه محاسن وجهه، ومثاله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء:56].

❖ ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾: هي تناديه على الحقيقة أو على المجاز، بلسانِ حالها أو بكلامٍ صادرٍ منها، أو من الزبانية الذين عليها؛ ولكن المؤدَّى أنها لا تتركه يخرج منها، ولا أن يهرب من لظاها، قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «تقول: إليَّ يا كافر - أو يا منافق - ثم تلتقطهم التقاط الحَبِّ».

❖ ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ أي في الدنيا بالشرك والكفر والإعراض عن الحقِّ، و﴿تَوَلَّى﴾ أي أعرض عن الطاعة.

❖ ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾: وجمع المال، فأوعاه أي كنزه وجعله في وعاءٍ، ولم يُخرج منه حقَّ الله تعالى، وحقَّ عباده، من زكاةٍ وصدقةٍ، وفي سورة الحاقة: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾ [الحاقة:33-34]. ويقابله في حقِّ المؤمنين المصلِّين السعداء، أصحابِ الجَنَّةِ أن في أموالهم ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ (24) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.



## التشغيل والتفعيل

﴿كَلَّآ﴾ من حروف المعاني؛ وهو حرفٌ يفيد الرَّدْعَ والزَّجَرَ والاستنكارَ، يجوز الوقوف عليه، والابتداء بما بعده عند سَيِّوِيهِ والخليل؛ ومن معانيها في كلام الله الإبطال لما تقدَّم من كلامٍ سابق؛ وهي نقيض «إي»، و«أجل».

ذكر الفيروز آبادي أنَّ ﴿كَلَّآ﴾ في القرآن الكريم يحسن الوقوف عليها في تسعة عشر موضعاً، والباقي لا يحسن الوقف عليه؛ وليس في النصف الأول من كتاب الله عزَّجَلَّ ﴿كَلَّآ﴾؛ وإنما جاءت في كلِّ مواضعها الثلاثة والثلاثين، في النصف الآخر من القرآن، وأكثر ما جاءت في السور المكية.

جمعُ المال وتخزينه ليس حراماً لذاته، وإنما الحرام هو البخل، وعدم إخراج حقِّه؛ أو أن يكون من حرام، أو ينفق على حرام.



## ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما سأل رجلٌ مسلماً الله عَزَّ وَجَلَّ الجنة ثلاثاً إلا قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة، ولا استجار من النار مستجيراً ثلاث مرات إلا قالت النار: اللهم أجره من النار».

❖ فعل ﴿وَجَمَعَ﴾ في الآية إشارة إلى حبِّ الدنيا، و﴿وَجَمَعَ فَأُوَعِيَ﴾ إشارة إلى الحرص؛ ومجامع آفات الدين هي هذه.

❖ «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة» من دعاء رسول الله ﷺ.

❖ للقراءة: «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» للهيثمي.



قال الله تعالى:

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ  
الْحَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾

### بذور المعنى

- ❏ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾: تقرير حقائق في خلق الإنسان، وما ركب عليه من صفات؛ لا يمكن تشديبها وتهذيبها إلا بالإيمان والعمل الصالح؛ والجملة تذييل لقوله تعالى: ﴿جَمَعَ فَأَوْعَى﴾.
- ❏ قيل: الإنسان يُراد به الكافر؛ وقيل: يُراد به مطلق الإنسان، بدليل استثناء المصلين منها: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾، وهو الصواب.
- ❏ وفي معنى ﴿هَلُوعًا﴾ أجرى العلامة ابن عاشور بحثًا عميقًا،

وانتهى إلى أن لفظ الهلع «لفظٌ غامضٌ من غوامض اللغة، قد تساءل العلماء عنه». فمنهم من فسّره بباقي الآية أي الهلوع هو من «إذا ناله شرٌّ أظهر شدّة الجزع، وإذا ناله خيرٌ بخل به ومنعه عن الناس». وانتهى صاحب «التحرير والتنوير» إلى القول: «والذي أستخلصه من تتبّع كلمة الهلع، أن الهلع قلّة إمساك النفس عند اعتراء ما يحزنها أو ما يسرّها» فهو قد استفاد من كون معنى الهلوع مفسّراً في بقية الآيات، ولكن عدّل ذلك إلى معنى جامعٍ مستنبط.

❏ ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾: الجزعُ من آثار الهلع، وفسّر بالشره، والضجر، والشح، والجوع، وفي القاموس «ما يُحسّ به المرءُ من القلق والاضطراب وضيق الصدر أو عدم الصبر» فيكون مرادفًا للهلع؛ ولفظ الجزع كذلك وقع فيه اضطراب كثير، واختلاف كبير، في مجمل التفاسير.

❏ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾: قليلٌ من الخير إذا أتى الإنسان صيره منوعاً له، مانعاً للعتاء والبذل والصدقة. وإذا لم يوق شح نفسه، وبخل واستغنى، فإن مصيره العذاب: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ [ق: 25]. وقد سبق من صفات الكافر الشقي أنه ﴿جَمَعَ فَأَوْعَى﴾.



## التشغيل والتفعيل

☐ الهلع والجزع والمنع ليست من الرذائل في ذاتها؛ ولكن إذا تجاوزت حدّها، وحملت صاحبها على اقتراف الحرام، والإعراض عن الواجب، عُدَّت من الآثام؛ ولولا هذه الصفات لماتت همّة الإنسان، ولكان خاملاً؛ ولولا أن الله جَلَّ جَلَالُهُ فطر الإنسان على ذلك لما ظهر الفرق بين من ربّاه الدين ومن أعرض وفسد بالابتعاد عن روح الدين.

☐ ثمة فرق بين «ملكة الفعل» و«ذات الفعل»؛ فالله تعالى خلق الإنسان ومعه ملكات جُبل عليها، واستعدادات فُطر بها؛ ثم أمره بأوامر تهذب تلك الملكات ألاّ تشتطّ، وتأخذ منها ما يجعلها معتدلةً. وما يأتيه الإنسان بما جُبل عليه، وحسب استجابته لأوامر الله تعالى، يسمّى «فعلاً»؛ والله تعالى لا يحاسب على الملكات ولكن على الأفعال. وقد بيّن الله تعالى ذلك في كتابه الحكيم فقال: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء:37]، ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:28]، ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء:11]، ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء:100]، ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ [آل عمران:14]...



### ❦ من الفكر إلى الفعل

❦ قبل التكليف تكون صفات الحرص والهلع والجزع، بل وحتى المنع للخير أحياناً؛ من صفات الكمال عند الطفل؛ ولكن بعد البلوغ لا بدّ من أن يجاهد المرء نفسه ويكابد ميولها؛ فيحملها على الهلع والجزع من الشر الأخرى، وعلى البذل للخير في كل أمره.

❦ الصلاة أولى محاضن تربية النفس وتزكيتها وتهذيبها، ورفع صفة الهلع والجزع المنهي عنه لدى الإنسان: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾.

❦ عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كلّه خير، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له! وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له!»



قال الله تعالى:

إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾

### بذور المعنى

❖ ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾: هو استثناء متصل، أي إِلَّا المصلين فإنهم لا يهلعون ولا يجزعون ولا يمتنعون، بل يغالبون هذه الصفات فيهم، وإن زلُّوا تابُّوا ورجعوا. قال القطب اطفيش: «والذمُّ والعقاب على عدم العلاج»، أي على عدم تزكية النفس وعلاجها من هذه الصفات.

❖ الآية دالة على أن فعل الخير يكون «مكابدة» للميول، و«مجاهدة» للنفس، وحملها على ما لا تحبُّ، وفي سورة النازعات: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 40-41].

❏ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾: قَدَّمَ ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ﴾ للفاصلة، وترغيباً في الاهتمام بالصلاة، ولكونها أولى الطاعات بالعناية.

❏ والدوام على الشيء عدم تركه بحسب ما يُعتبر فيه عادةً؛ وقد درج الأسلوبُ القرآني على تقديم الصلاة على ﴿خَاشِعُونَ﴾، وعلى ﴿يُحَافِظُونَ﴾، وعلى ﴿سَاهُونَ﴾؛ فالصلاة خيرُ موضوع.

❏ والمداومة في الآية للصلوات عموماً، الفرائض والنوافل؛ وسيأتي ذكر المحافظة عليها، وهو يخصُّ المفروضات فقط.



## التشغيل والتفعيل

❏ الحثُّ على المداومة على العمل والترغيبُ فيه من مقاصد ديننا، وهو وارد في كثير من آيات الله تعالى الكريمة، وأحاديث رسوله الشريفة. قال ﷺ: «خذوا من العمل ما تطيقون، فإنَّ الله تعالى لا يملُّ حتى تملُّوا» [رواه البخاري]، وقال: «أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها» [رواه البخاري]. وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «كان عمله ديمة وأيكم يطيق ما يطيق» [رواه الترمذي].

### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ كان النبي ﷺ إذا صلى صلاة داوم عليها، وكذا مع جميع أعمال النفل، إلا أنه لا يشهره، بل يرغّب فيه بلطف ليشوّق الناس.

❖ في الحديث الشريف: «إنّ المنبتّ لا ظهرًا أبقى، ولا أرضًا قطع»، وفيه نهى عن «الحملات والهبّات» التي تُرهِق الإنسان، وتمنعه من المداومة على الخير.

❖ للقراءة: «كتاب فضائل الأوقات» للإمام البيهقي أحمد بن الحسين.



قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ فِيءِ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿24﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿25﴾﴾

### بذور المعنى

﴿وَالَّذِينَ فِيءِ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾: سُمِّي نصيب الفقراء حقاً، لإيمان أصحاب هذا المال أن المال ليس مالهم، وإنما هم شركاء فيه مع من أمر الله تعالى أن يُتصدق عليه. وهذا من فَرَطِ كرمهم. ويوم نزلت الآية لم تكن الزكاة قد فرضت بعد.

وفي وصف الحق أنه معلوم استشكل أهل التفسير: إذا كانت السورة مكية، فلم كان الحق معلوماً، والزكاة لم تفرض بعد؟ وأجيب أنه حق معلوم ومعين من قبلهم، هم يقدرونه ويداومون عليه. وعدَّ البعض الآية مدنية، وأنَّ

الحقَّ المعلوم هو الزكاة؛ وقالوا ما جاء في سورة الذاريات بدون وصف المعلوم هو للصدقة عامّة: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: 19].

❏ ﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾: هو الفقير الذي يسأل الله ويستعطيهم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: 10].. أمّا المحروم فهو المحتاج الذي لا يسأل الناس تعففاً منه، مع كونه في مسغبة فلا يُفطَن له؛ ولقد أثنى الله تعالى على الفقراء الذين ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَاقًا﴾ ذلك أنّ من لا يعرفهم ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَعْيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: 273].

❏ ويكون السؤال بالعبارّة أو بالإشارة أو بالحال، مما يجعل من حوله يفهم منه أنه في حاجة؛ أمّا «المتعفف» فيحاول إخفاء تلك العلامة؛ والممدوحون في الآية يُعطون من يسأل، ولكنهم كذلك يتفرّسون في المحتاج المتعفف الحاجة، فيصلون إليه بخيرهم وصدقتهم وبرّهم، وهذا أعظم درجة عند الله سبحانه.



### التشغيل والتفعيل

❏ من رُزق ما به يسدُّ حاجاته الضرورية: من مأكّل ومشرب، وملبسٍ ومسكن ودواء... فلا يجوز له أن يسأل الناس الصدقة، وأمّا من قُدِر عليه رزقه، وكان في حاجة ضرورية،



أو كان غريماً عليه دينٌ؛ فلا بأس أن يسأل بقدر حاجته؛ ولا يتخذ ذلك عادةً وحرفة، ما وجد لغيرها سبيلاً.

❑ قال النبي ﷺ: «ليس المسكين الذي يطوف على الناس، ترده اللقمة واللقمتان، والتمرّة والتمرتان؛ ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له فيُتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس» [متفق عليه].

### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ العمل وإن كان شاقاً متعباً، وكان المال الذي يأتي منه قليلاً، هو خيرٌ من المسألة، حتى ولو كثُر دُخلها، قال رسول الله ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حَبْلَهُ، فيأتي بحِزْمَةِ الحَطَبِ على ظهره، فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خيرٌ له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه؟»

❖ من فتن العصر: متدين ملتزم وهو مع ذلك ضعيف فقير محتاج إلى الناس؛ وفاجرٌ فاسق يملك زمام العمل وأسباب الغنى؛ مع تحكّم غير المؤمنين في الأموال والمقدرات؛ ولا ريب أن محاولة فكِّ هذه الشَّفرة والخروج منها، من أوكِد واجبات عصرنا.

❖ للقراءة: «المسلم في عالم الاقتصاد» مالك بن نبي. «الإنسان كلاً وعدلاً» جودت سعيد.



قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۖ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ  
مُشْفِقُونَ ۖ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۖ﴾<sup>28</sup>

### بذور المعنى

- ❏ ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾: ﴿بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ هو يومُ البعث والحشر؛ ذلك أنَّ الدين في اللغة يأتي بمعنى الجزاء والحساب، ويومُ الحساب هو يوم القيامة، قال تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:3].
- ❏ التَّصْدِيقُ المرادُ في الآية هو ما ورَّث عملاً؛ ويقال عن الشيء: «من صدَّق به ولم يستعدَّ له فكأنه جهله».
- ❏ فهؤلاء الذين يصدقون بيوم الحسابِ مُستثنون من الصفات التي ذكرت من هلع، وجزع.

❖ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾: في يوم الدين جزاءً وعقاباً، وهؤلاء خائفون من العقاب، راجون للنجاة؛ لأنَّ الخوف والرجاء متلازمان في أحوال الدنيا، ومتلازمان كذلك لأحوال الآخرة: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: 57].

❖ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾: لا أحد يأمن مكر الله تعالى، ولا أحد من خلق الله له عهد من الله أن لا يعذبه: ﴿قُلْ أَخَذْتُم مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ عَهْدًا﴾ [البقرة: 80]؛ ومن ثم لا يأمن المؤمن مكر الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْحَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 99].

❖ والخوفُ فيمن آمن بالله تعبدي، بل هو شرطُ في العبادة والإيمان والتقوى، ومن لا خوف له لا إيمان له، كما أن مَنْ لا رجاء له لا إيمان له.

❖ ومعنى ﴿غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ كذلك أنَّ الإنسان لا يمكنه أن يقطع بأنه أدَّى الواجبات كما ينبغي، وعلى الوجه الأكمل؛ أو أنه ترك المحظورات بالكلية؛ بل اللازمُ للعبد هو التقصير أبداً؛ ولذلك فهو خائفٌ من الإثم، مشفقٌ من العذاب، على الدوام.



❏ اقترن الإشفاق في كلام الله تعالى بالخشية: ﴿وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:28]، وبالساعة: ﴿وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:49]، وبالعذاب: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ في سورة المعارج؛ ومن خشي الله تعالى خشي عذابه وساعته.

❏ درجات الإشفاق كثيرة منها: إشفاقاً على النفس أن تنحرف، وإشفاقاً على القلب أن يميل عن الحق؛ وإشفاقاً على العمل أن لا يقبل؛ وإشفاقاً على الناس لمعرفة معاذيرهم.



### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ من خاف من إتيان المحظورات، وخاف من ترك الواجبات؛ كان من المشفقين المصدقين بيوم الدين. ولا إشفاق على الحقيقة والتحقيق إلا ممن آمن بالغيب، واستعدَّ لليوم الآخر.

❖ يقول سهل التستري: «دخول الخوف على الجاهل يدعوه إلى العلم، ودخوله على العالم يدعوه إلى الزهد، ودخوله على العامل يدعوه إلى الإخلاص».

❖ للتوسع في مقامات الخوف والإشفاق عند الصوفية، انظر «قوت القلوب» تأليف أبو طالب المكي. ولمحمد زاهد الكوثري كتابٌ بعنوان: «الإشفاق على أحكام الطلاق».





قال الله تعالى:

وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حُفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ  
 أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ  
 هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾



### بذور المعنى

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حُفِظُونَ﴾: الحفظُ هو الصيانة والإمساك، وحفظُ الفرج من الوطء صيانته وإمساكه عمّا حرّم الله تعالى ونهى عنه، وكذا حفظه على الوظيفة التي خلق لها.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾: ليس الإسلام مسيحيةً تحرّم النكاح، وإنما الذي حرّمته هو السفّاح؛ ولذا استثني من الحفظ الأزواج وما ملكت اليمين، فهنّ حلال للرجل؛ وللمرأة استثني منه الأزواج وهو وارد في الآية.

- ❖ ﴿فَإِنَّهُمْ عَيْرٌ مَلُومِينَ﴾: هم لا يلامون بإتيان أزواجهم وما أحلَّ لهم؛ بل هم مأجورون، لزيادة بيانٍ وتوضيح.
- ❖ ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾: أصل الوراثة ما جاء من جهة الظهر، وأطلق على مجاوزة الحدِّ في كلِّ شيء، أي فمَنِ ابْتَغَىٰ في نكاحه غير الأزواج فهو عادٍ، وهم في ذلك بالغون غاية العداوة، كأنهم هم العدوان وهم العادون لا غيرهم.



### التشغيل والتفعيل

- ❖ أغلب التفاسير في سياق تفسير هذه الآيات الكريمة تحيل القارئ إلى أوائل «سورة المؤمنون»؛ ذلك أنها هنا مكرّرة بنفس الأسلوب والعبارة تقريبا؛ ومن ثم لا يتوسعون فيها.
- ❖ حكم «ما ملكت اليمين» مما أحلَّ الله من الإماء، لم يعد معمولا به؛ والذي ألغي هو موضوع الحكم، لأنه لم يعد موجودا؛ لا ذات الحكم، وهو قائمٌ ولم يعطل.



### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» [رواه البخاري وغيره].

❖ في حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: «وفي بُضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر».

❖ للقراءة: «كتاب النكاح» للجانوبي يحيى بن الخير، و«حاشيته» لمحمد بن عمر السدويكشي؛ و«الإفصاح عن عقد النكاح على المذاهب الأربعة» لحسين بن محمد المحلي الشافعي.



قال الله تعالى:

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رُءُوفٌ ۖ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ  
قَائِمُونَ ۖ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۖ أُولَٰئِكَ فِي  
جَنَّةٍ مُّكْرَمُونَ ۖ

### بذور المعنى

❖ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾: يفيد معنى الجمع للأمانات كل ما أوْتَمَنَ عليه الإنسانُ من دين، ونفس، وعرض، ومال، ومسؤولية... وغيرها؛ ولكثرة أنواعها جيء بالجمع بخلاف العهد؛ وقيل معناها جميع ما كلفهم الله تعالى به من اعتقادٍ وعملٍ، فتعمُّ حقوق الله وحقوق العباد، وحقوق جميع الخلائق. والنعم كذلك أمانات استؤمن عليها صاحبها.

❖ العهد ما التزم به الإنسان نحو غيره، فهو مُلْزَمٌ به؛ والأمانة عهد بالضرورة لكن قد تكون بلا التزام مصرَّح به. وأصل



الرَّعِي ﴿رَاعُونَ﴾ الإحاطة والحفظ، فمن رعى الغنم حافظ عليها وأحاطها بعنايته ونمّاها؛ وكذلك هؤلاء مع أماناتهم وعهدهم يحافظون عليها، ويرعون حدودها، ويحسنون فيها.

❏ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾: الشهادة ما يؤدّيه الإنسان من حكم أو موقف تجاه غيره؛ فهؤلاء لا يتكبرون عن أداء ما حُمّلوا منها ولا يستنكفون.

❏ والقائم هو المستمرُّ، والقيام نقيض الجلوس، أي هم دائمون حريصون في أداء ما عليهم من شهادة، ولا يكون ذلك إلا لمن فعله لوجه الله تعالى، ولم يرد به جزاء ولا شكورًا من أحد من الخلق؛ وما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل.

❏ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾: عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ، افتتحت الصفات بالمداومة على الصلاة، واختتمت بالحفاظ على الصلاة؛ وما ذلك إلا لفضل الصلاة ومكانتها ودورها في تهذيب سلوك الإنسان المؤسّس على الهلع والجزع والمنع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت:45]. والصلاة سبب لسائر الصفات الحسنة، كما أنّ تركها أو التهاون فيها مجلبة لسائر الصفات السيئة.

❏ ﴿أَوْلَآئِكَ فِي جَنَّتٍ مُّكْرَمُونَ﴾: جميع الموصوفين بتلك الصفات، مقامهم يوم الحساب عند الله تعالى جنات، مكرمون فيها ومكرمون؛ والإكرام هو التعظيم وحسن الاستقبال واللقاء، وهو الثناء الجميل. ولقد وصف الله تعالى الملائكة أنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: 26].



### التشغيل والتفعيل

❏ تحمّل الشهادة فرض كفاية، والأداء فرض عين؛ وإذا لم يوجد من يتحمّل كان التحمّل فرض عين، والأداء فرض عين على كلّ حالٍ.

❏ المراد بالمحافظة على الصلاة: إتيان شروطها ومستحباتها، كما أمر الله تعالى؛ وحضور القلب فيها، وإعظام مقامها.



### ❦ من الفكر إلى الفعل

❦ قال ﷺ: « لا إيمان لمن لا دين له، ولا دين لمن لا عهد له ».

❦ عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه كان يقول للرجل إذا أراد سفراً: أذن مني أو دّعك كما كان رسول الله ﷺ يودّعنا: « أستودع الله دينك، وأمانتك وخواتيم عملك ».

❦ من الأمانات التي حملها الله تعالى للإنسان «أمانة الدين» وحفظه، والذود عنه، ونصرة الصلاح والحق، ومحاربة الفساد والباطل؛ وأمانة الأوطان، والأعراض، والأموال... وما حال تخلف الأمم الإسلامية اليوم إلا بسبب تضييع الأمانات، وكثرة الخيانات.

❦ للقراءة: «وفاء الضمانة بأداء الأمانة» لقطب الأئمة امحمد بن يوسف اطفيش.



قال الله تعالى:

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ  
الشَّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيُطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ  
نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

### بذور المعنى

﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكَ مُهْطِعِينَ﴾: المهطع هو المقبل ببصره على الشيء لا يزايله، وذلك من نظر العدو الذي يبطن ما لا يظهر، والإهطاع مدُّ العنق عند السير؛ فإذا كان الإنسان بكفره واستكباره على ما ذكر، فما بال الذين كفروا، الذين يحومون حولك، ويجلسون قبلك مقبلين عليك بعيونهم وأعناقهم؛ والذي يكون قبلك أي أمامك تقع عليه عينك.

﴿مؤدَّى الآية: مألهم هكذا يطمعون في الجنة، وهم لا يأترون بأمر الله تعالى، ولا يُطيعونك فيما أمرتهم به، ولا يأتون ما أمر الله به أن يؤتى من إيمان، وعمل صالح، وخلق



حسن .

❏ والصيغة صيغة تعجب وتهكم من سذاجتهم ووقاحتهم وصلفهم: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾.

❏ ﴿عَنِ الِّيمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾: أي هم محيطون بك من كل جهة، قال تعالى: ﴿عَنِ الِّيمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:17]. وعززين أي جماعات متفرقة، والمفرد عزة، وكأنهم عزوا أنفسهم لأمر واحد وهدف مشترك، لكنهم شتى ومختلفون؛ ويؤكد قوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ﴾ أي متفرقين مشتتين.

❏ ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾: ما الذي حملهم على الطمع في رحمة الله تعالى؟ وما الذي حملهم على أن يهطعوا إليك وهم قبلك؟ وهل يعتقدون أن يدخلوا الجنة على كفرهم؟ ولم يجتمع الكفار على دين واحد إلا على ملّة الكفر؛ ودين كل واحد منهم هواه؛ لذلك ورد الأفراد في قوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ﴾.

❏ ولا يدخل الجنة إلا من كان على دين واحد، هو دين الإسلام.

❏ ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾: مما يعرفون من تراب، ونطفة، وعلقة... فلا يفضل أحدًا أحدًا في شيء، ولا محاباة

إلاً ما كان من تقوى الله تعالى؛ أو هو ردُّ على إنكارهم البعث، فكما خلقناهم أول مرة كما يعلمون، نحن قادرون على بعثهم: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: 94]، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 78-79].



### التشغيل والتفعيل

❖ في أوائل السورة ينزل التالي لكلام الله تعالى قوة وصف الإنسان بـ ﴿هَلُوعًا﴾، و﴿مُتَوَعًا﴾، و﴿جَزُوعًا﴾؛ ثم تتقدم الآيات في نعتهم بـ ﴿مُهْطِعِينَ﴾، و﴿عَزِينَ﴾؛ والجرس الذي تُلقيه الصيغتان ينفذ إلى دواخل النفس فيحرّكها، ويلج إلى بواطن العقل فيوقظه، ويسري بين الجوانح والجوارح فينشّطها للصلاة، ولسائر الصفات التي تشذب وتهذب المسلم، مما ذكر في قلب السورة، فيزكو ويتطهر.

❖ عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبحنا «الحرقات» من «جهينة»، فأدركت رجلا فقال: «لا إله إلا الله؛ فطعنته. فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: أقال: لا إله إلا الله وقتلته؟ قال: قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح. قال: أفلا

شَقَّقْتُ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ قَالَهَا أَمْ لَا؟ فَمَا زَالَ يَكْرِّرُهَا عَلَيَّ  
حَتَّى تَمْنَيْتَ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ».

هل زيادة العلم بالخلق، وبكيفية الخلق، وتفصيلها... مما  
تفرَّق بين علوم كثيرة، هل يزيد ذلك إيماناً؟ وإذا كفر عالم  
في «علم الأجنة» مثلاً؛ فما الذي منعه من الإيمان بالخالق  
سبحانه؟



### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ لا تخفى على الله خافية، وهو سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ ومهما تكن عند الإنسان من خفايا النفس وخباياها فالله تعالى أعلم بها.

❖ إنما نحكم على الناس بالظاهر، والله تعالى يتولى السرائر؛ قال سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الله تعالى تولى عنكم السرائر، ودفع عنكم بالبينات».

❖ كثر بين الناس التنقيب عن أسرارهم، بخاصة ما كان عبر وسائل التواصل الاجتماعي؛ وفي ذلك إثم كبير، إلا من هتك عرضه بنفسه، وأعلن ما أمر الله تعالى أن يستره ويخفيه؛ وفي الحديث الشريف: «من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله».



قال الله تعالى:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ﴾ (40) ﴿عَلَىٰ أَنْ تُبَدَّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (41) ﴿فَدَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ (42)

### بذور المعنى

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾: ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ هي من أبلغ صيغ القسم عند العرب، أي الأمر من الوضوح بحيث لا يحتاج فيه إلى قسم.

﴿إِنَّا لَقَدِرُونَ﴾ (40) ﴿عَلَىٰ أَنْ تُبَدَّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾: الله تعالى الذي جاء بهم قادرٌ على أن يذهب بهم ويأتي بأقوامٍ خير منهم، وبأمةٍ خير من أمتهم وتجمعهم؛ والآية تفيد التهديد باستئصالهم لو أراد الله تعالى، وفيها تقريع لهم على جحودهم، مع أن أمر خلقهم أهون على الله مما

يظنون؛ والتهديد والتقريع وارد لعلهم يراعون ويتوبون ويستغفرون الله فيغفر لهم؛ وذلك مشروط بأن يكون في قلبهم ذرة من الخير وحسن النية؛ أما إذا طغوا وتجبروا وعاندوا فإن الله تعالى قاهرهم ومذيقهم الخزي في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد:38].

❖ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾: أي لا أحد يسبقنا ويغلبنا في الأمر والحكم، ولا أحد يمنعنا من أن نفعل ذلك، أو أن نأتي ما نشاء متى نشاء؛ فالله تعالى مطلق الإرادة، نافذ الحكم؛ لا راد لقضائه، ولا معقب على أمره؛ وهو جَلَّ جَلَالُهُ ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:16]، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:23]. وفي سورة الواقعة: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلَيَّ أَنْ تُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ [الواقعة:60-61]. وحتى الملائكة قال فيهم جل من قائل: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (26) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:27].

❖ ﴿فَذَرَهُمْ خَوْضًا وَيَلْعَبُوا﴾: بما أن هؤلاء الذين كفروا ﴿قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ وهم يطمعون أن يدخلوا الجنة استهزاء منهم، حتى لو لم يؤمنوا بك وبكتاب ربك؛ فذرهم واتركهم وشأنهم، ولا تلتفت إليهم.

❏ يذر بمعنى يترك، وفي القاموس: «لا يُستعمل منه سوى المضارع والأمر، وأماتت العرب ماضيه ومصدره».

❏ «خاض» القومُ إذا أمعنوا في الباطل وتوغَّلوا فيه، وخاض في القول تكلم فيه كلما كثيرا غير موزون؛ والمعنى اتركهم يقولوا في القرآن الكريم وفيك يا محمد ما يحلو لهم؛ وذرهـم يلعبوا ويهزلوا ويهزؤوا؛ ذلك أنهم ليسوا جادِّين في تلقِّي ما جئت به من حقٍّ، وسيلقون جزاء ذلك لا محالة.

❏ وفي سورة المدثر حكى الله تعالى قصة ندمهم واعترافهم يوم الحساب، فهم يقولون: ﴿وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المدثر: 45-46].

❏ ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾: إلى اليوم الذي ينكشف فيه حالهم، فهم كأنما يلاقون اليوم لقاءً محتما؛ وإضافة اليوم إليهم فيه معنى الحتمية والتهديد، كأن يقال لأحد: «سيأتي يومك الموعود»؛ وهذا اليوم كانوا حين يجلسون قبل رسول الله ﷺ مهطعين، وحين يسمعون ما أنزل إليه ويتخذونه هزؤا؛ كانوا يوعدون به، ويذكرون وينذرون، لكنَّ الذكرى لا تنفعهم: ﴿وَدَّكَّرَ فَإِنَّ الدَّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 55] ولا تنفع الكفار والمنافقين.



## التشغيل والتفصيل

❏ ورد المشرق والمغرب في القرآن الكريم مفردا كما في هذه الآية، ومثني في قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾، وجمعا: «المشارك والمغرب». ولكل منها معنى يحدده السياق، ويوضحه التحقيق في علم الفلك؛ لكن لا بد من الاعتراف أن النظرية العلمية ليست حقيقة علمية، وبالتالي فهي قابلة للخطأ والدحض، أمّا ما جاء في كلام الله تعالى فهو حقٌّ مطلقٌ، سواءً أدركناه أم لم ندركه؛ والوجود لا يتوقف على فهمنا له.

❏ في الجمع بين صيغ ورود المشرق والمغرب في القرآن الكريم، يمكن أن نقرر أنه في كل لحظة من الزمان ثمة مكان تشرق منه الشمس وتغرب فهذا الجمع «المشارك والمغرب»؛ أمّا لو أخذنا أي نقطة من الأرض فلها مشرق ولها مغرب، وهنا نوظف الأفراد «المشرق والمغرب»؛ ولها مكان تشرق منه الشمس وتغرب، ومكان يشرق منه القمر ويغرب وهو من معاني المثني. ولا ريب أن ثمة معانٍ أخرى يحسن البحث فيها.

❏ لم يذكر الله تعالى في كلامه الحكيم الشمال والجنوب، وإنما ذكر المشرق والمغرب؛ لحكمة أرادها يحسن البحث فيها. ولقد علّل لذلك بجملة تعليقات لا ترقى إلى الفهم الصحيح، وليس فيها دليل واضح. والقرآن حكمة كلّه، لا شيء منه ورد مورد العبث.

### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ الإعراض عن السفهاء والخائضين من شيم النبي ﷺ، ومن صفات المؤمنين الصادقين.

❖ تطورت صيغ الخوض وتنوعت في هذا العصر، مع تطور وسائل التواصل والنشر، ومع تشعبها وتنوعها وتعقدها؛ ولا ريب أن المسلمين صاروا ضحاياها، وأنهم تخلفوا في التحكم فيها، فكانت وبالاً عليهم؛ والاجتهاد في إصلاح هذا الحقل، من أوكد أنواع الجهاد في عصرنا.

❖ للقراءة: «الحرب النفسية: معركة الكلمة والمعتقد» صلاح نصر. ورواية بعنوان «1984» لجورج أرويل.



قال الله تعالى:

يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نَصَبٍ  
يُوفُضُونَ ﴿٤٣﴾ خُشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا  
يُوعِدُونَ ﴿٤٤﴾

### بذور المعنى

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نَصَبٍ يُوفُضُونَ﴾: هؤلاء المشركون في هذا اليوم الشديد، يخرجون من أجداثهم وهي القبور؛ مُسرعين مهرولين جادّين في غير الهيئة التي كانوا عليها قبل موتهم، يوم كانوا مخيرين لا مجبرين؛ فالأمر جدُّ، والمصاب كبيرٌ، وأهوال الحشر والحساب لا خوض فيها ولا لعب.

الصورة الذهنية لهؤلاء الكفار تشخصهم كأنهم ذاهبون إلى نَصَبٍ أي صنمٍ من الأصنام التي كانوا في الدنيا يسارعون إلى عبادتها، ولقد كانوا متباطئين في السماع إلى الحقّ،

مُسرعين في طريق الباطل. وفي هذا التشبيه تنكيلٌ بهم وردعٌ، وفيه دُعٌ إلى العذاب النفسي والجسدي ما يندُّ عن الوصف والتقدير. نسأل الله العافية، وحسن الخاتمة.

❏ ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ﴾: تلك العيون التي كانت في الدنيا تنظر إلى رسول الله ﷺ مُهْطِعَةً، ها هي اليوم خاشِعَةٌ خاضعةٌ.

❏ في سورة النازعات: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ [النازعات: 8-9]، وفي سورة الغاشية كما في هذه السورة نُسب الخشوع إلى الوجوه: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ [الغاشية: 2].

❏ ﴿تَرَهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: رهق الشيء الشخص إذا غشيه ولحقه وركبه، وأرهقه أي حمله على ما لا يُطيق وأتعبه؛ وكلُّ هذه المعاني تتمثل في الكافر والمنافق يوم الحساب. وفي الدنيا كانوا يدعون العزة، فها هم يوم القيامة يجزون بالذلة جزاء عادلا، وكانوا يتبجحون بالرخاء والرفاه، وها هم يوم الجزاء مُرهقون معدَّبون.

❏ ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾: أي كلُّ ما تقدّم من شأنٍ ذي بال هو وصفُ اليوم الذي وعدهم الله به في كتابه، وذكرهم به نبيُّهم في مجالسه؛ ولكنهم كذبوا به، واتخذوه هزواً ولعباً؛ وذلك اليوم الذي طلبوه وسألوه أو سألوا

عنه، المذكورُ في أول السورة؛ ذلك اليوم صِفته ما تقدّم،  
والجواب عنه ما فُصِّل، وحقيقته ما وُعدوا به.

❏ فهل تنفعهم الذكرى؟ إذا آمنوا فنعم، وإذا جحدوا فلا.

❏ نسأل الله أن يحشرنا مع نبيه الكريم يوم نلاقي ربنا، وأن لا  
يحشرنا مع هؤلاء في الدنيا ولا في الآخرة. آمين.



### التشغيل والتفعيل

❏ لو تتبعنا صورة الزمن في هذه الآية، فإنَّ الزمن الخطِّي لا  
يفسّر انتقاله من الدنيا إلى الآخرة، ثم من الآخرة إلى الدنيا؛  
ومع ذلك هو زمن متتابع يرافق كلَّ تالٍ لكلام الله تعالى،  
ولا يموت في عهدٍ أو عصر؛ وهو بذلك يخص كلَّ إنسان،  
ويعني كلَّ قارئ.

❏ «صورة الزمن في القرآن الكريم»، و«الإيقاع الزمني بين  
اللفظ والمعنى في القرآن الكريم»، و«المسافة الزمنية بين  
القرآن الكريم والنص البشري»... وغيرها من المواضيع  
الدقيقة في فهم كلام الله تعالى، من زاوية الدراسات  
الزمنية، بكلِّ أبعادها وتخصصاتها؛ تحتاج إلى جهد علمي  
معتبر؛ ويبقى الاشتغال بها رجاء مشروطاً، وأملاً مشروعاً.



### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ:  
«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن  
والبخل، والهرم، والقسوة، والغفلة، والعيلة،  
والذلة، والمسكنة، وأعوذ بك من الفقر والكفر  
والفسوق والشقاق والنفاق والسمعة والرياء...»  
فإننا نعوذ بالله من الذل في الدنيا، ومن الذلة  
في الآخرة.

❖ للقراءة: «الإسلام ومصير الإنسان» في جزأين؛  
لشارلز لي غاي إيتون. و«في حب كلام الله»  
لمحمد باباعمي.







قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ  
أَن أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾

### بذور المعنى

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: بسم الله، ومن الله، وبالله، وعن الله... ترسل الرُّسل، لتدعو أقوامها، فتبشِّرَ من استجاب منهم، وتندَرَ من أعرض وضلَّ؛ ومن رحمته أن جعل السماوات والأرض آيةً وعبرةً، ولساناً ناطقاً صادقاً بالحقِّ لمن أعمل عقله، ولمن لم يغلّف بالكبر قلبه. وطمعا في رحمانيته تعالى نسأله، ونجار إليه: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾: التوكيد بـ﴿إِنَّا﴾ للتذكير

بأهميّة الخبر، وفيه قوّة وقهرٌ من الله تعالى على المرسل عليهم، وعلى من يكذب الرسل من أمة محمد ﷺ.

❏ وقوم نوح لم يرد اسم لهم سوى ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾، ولا عشيرتهم ولا نسبهم، ولا المكان الذي عاشوا فيه؛ وثمة روايات تاريخية لا ترقى إلى اليقين في بيان أنهم كانوا في الشام، وبعضهم قالوا في تركيا، وقيل في العراق؛ ولكنها متّفقة على أنّ مهد الرسالات لا يغادر ما بين دجلة والفرات شمالا، ومصر والبحر المتوسّط غربا، واليمن جنوبا.

❏ ﴿أَنْ أَنْذِرَ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: هذا مضمون الرسالة التي أرسل بها نوح، وهو أن ينذر قومه ويحذّرهم؛ ذلك أنهم لم يستجيبوا لدعوته، ولم يؤمنوا بالله وحده، بل عبدوا الأصنام؛ فكان من العدل والحكمة - لعلّهم يستغفرون أو يتوبون - أن يخبرهم محذّرا أنّ عذاب الله سيحقيق بهم، وهو عذابٌ أليمٌ في الدنيا، وفي الآخرة.

❏ ونسبة القوم إلى نوح، رغم أنهم لم يؤمنوا به؛ لكونه وُلد فيهم، ولأنّه أرسل إليهم، ثم لأنّه حريصٌ على نجاتهم؛ وكذا لأنّ فيهم زوجه وبناته وأهله وقربته، فهم قومه.



## التشغيل والتفعيل

❏ الأنبياء والرسل الذين سميت باسمهم سورة من القرآن

الكريم هم: يونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، ولقمان، ومحمد، ونوح عليهم السلام؛ وثمة سور استعملت الرمز ليكون كناية عن نبيء من الأنبياء، من مثل تسمية: سورة البقرة كناية عن قصّة ذبح البقرة مع سيدنا موسى؛ أو سورة المائدة إشارة إلى قصّة سيدنا عيسى، أو سورة الحجر إشارة إلى أصحاب الحجر، وهم ثمود قوم صالح؛ أو سورة النمل، رمزاً لقصّة سليمان عليهم السلام. أمّا ما سمي بسيدنا محمد ﷺ، فهو كثيرٌ، منه سورة محمد بالتصريح؛ وبالتلميح سورة الأنفال، والإسراء، والفرقان، والأحزاب، والشرح... إلخ.

❏ قيل اسم ﴿نوح﴾ ليس عربياً، وقيل اشتقّ من النوح، وذلك لشدة نوحه على قومه؛ والأوّل هو الرّاجح؛ للتكلف في المعنى الثاني، ولا معنى لتعريب ما لم يكن عربياً؛ ولم يذكر أنّ سيدنا نوحاً كان يبكي على قومه، وإنما ذكر أنه كان يدعوهم، ويشفق عليهم، ويحدّثهم، ويحاججهم...



### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ التربية بقصص الأنبياء، من مثل قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَام؛ من أعظم أساليب التربية لكل الأعمار والمستويات؛ ولو لم يكن في القرآن قصصٌ، لصعب على عامة الناس فهمه وإدراك مغزاه.

❖ تعلّمنا قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَام أنّ العبرة ليست بالثمرة والنتيجة؛ ولكن بالجهد والإخلاص؛ فإذا لم يكتب الله الثمرة، فذلك خارج عن مسؤولية العبد. ولو حوسب نوح عَلَيْهِ السَّلَام بعدد السنين وهي كثيرة، وبعدد الذين آمنوا معه وهم قليل، لكان في ذلك إعنات شديدٌ.

❖ للقراءة: «قصص الأنبياء» عبد الوهاب النجار، «القصص المرربي» للدكتور محمد ناصر.



قال الله تعالى:

قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ  
وَأَطِيعُوا ۖ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّضْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ  
مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

### بذور المعنى

- ❖ ﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: النداء بـ ﴿يَقَوْمِ﴾ للتحبيب والتقريب وتوجيه الكلام مباشرة بلا واسطة، إمعانا منه عَلَيْهِ السَّلَامُ في أداء الرسالة التي حُمِّلها؛ فأنا لكم شديد الإنذار، مبینٌ فيما أقوله لكم، واضحٌ وموضَّحٌ؛ لأنني لا أجتني من دعوتي لكم فائدة، ولا أسألكم عليه أجرًا.
- ❖ ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: الأمر بعبادة الله لأنهم أعرضوا عنه وعبدوا غيره من الأصنام، ولقد عبدوا هواهم وكبرهم وكبراءهم بمعنى من المعاني.



❏ ﴿وَاتَّقُوهُ﴾: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله تعالى وقايةً وستراً وحجاباً.

❏ ﴿وَأَطِيعُونَ﴾: ولا تعصوه فيما أمركم به، وذلك بإتيانه كما أمر؛ وفيما نهاكم عنه، وذلك باجتنابه؛ وفي ذلك مصلحة لكم دنياً وآخره.

❏ ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾: هو وعدٌ أخرويٌّ من الله تعالى أنكم إذا فعلتم كل ذلك من «عبادة، وتقوى، وطاعة» فإن الله سيغفر لكم، ويتوب عليكم، ويُبيلكم جزاء ذلك رضوانه وجنته.

❏ وفي التوبة والإيمان بالله جُبَّ لما قبله في شريعة سيدنا نوح عَلَيْهِ السَّلَام، كما هو في شريعة سيدنا محمد ﷺ: الإسلام.

❏ ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: هو وعدٌ دنيويٌّ من الله تعالى، أنه يُطيل أعماركم، فيطول بقاؤكم في خير؛ ولقد جُبل الإنسان على حبِّ البقاء في الدنيا، على ما في الدنيا من منغصات ومكدرات؛ قال ابن عاشور: «وهذا ناموسٌ جعله الله تعالى في جبلَّة الإنسان، لتجري أعمال الناس على ما يُعين على حفظ النوع».

❏ وكذلك هو وعدٌ من الله أن لا يُنزل بهم العذاب الأليم، الذي أنذروا به، إذا هم تابوا وعادوا إلى الحقِّ.

❏ و«الأجل المسمّى» هو الأجل المقدر عند الله تعالى، وهو سبحانه لا يعلم به أحداً: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَاخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34]، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّادَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: 34].

❏ ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾: إمّا أن يكون معنى الأجل هو الوقت المعين للعذاب، الذي وعدكم الله به، وأنتم معرضون عن التوحيد، متشبّهون بالشرك والكفر والظلم؛ أو الأجل هو انتهاء عمر الأمة، ما دام لكل أمة أجل وعمر تنتهي إليه.

❏ ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أي أنتم لا تعلمون حقيقة هذا الأجل، ولا تقدرون الله تعالى حق قدره، لجهلكم به وبما يقدر عليه. والعلم المنفي عنهم هنا ليس حصول المعلومة، فقد يكون لبعضهم أو لجميعهم معلومة بذلك؛ لأن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ أنبأهم وأنذرهم به؛ وإنما هو العلم المؤدّي للعمل، والذي بمقتضاه يتغيّر موقفهم من الله جَلَّ جَلَالُهُ، ويتغيّر سلوكهم وفعلهم جرّاءه؛ فالعلم المعتمد به هو العلم الذي يثمر عملاً.



### التشغيل والتفعيل

❏ قال الرازي: «أمر نوح القوم بثلاثة أشياء: بعبادة الله،

وتقواه، وطاعته؛ فالأمر بالعبادة يتناول جميع الواجبات والمندوبات من أفعال القلوب والجوارح، والأمر بتقواه يتناول الزجر عن جميع المحظورات والمكروهات، أمّا الأمر بالطاعة فداخل في الأمر بالعبادة والتقوى، ولكن ذكره تأكيداً.

❏ وعد الله تعالى قوم نوح بأربعة أمور إذا هم أتوا أوامره: أن يزيل عنهم مضار الآخرة، ومضار الدنيا؛ وأن ينيلهم خير الدنيا والآخرة.

❏ عن علي رضي الله عنه قال: رسول الله ﷺ: «من سرّه أن يمّد في عمره فليتق الله، وليصل رحمه» والله تعالى هو الذي يكتب الآجال ويقدمها ويؤخرها كيف يشاء؛ ولا يملك الإنسان تصوّر كيفية ذلك؛ والجدل الكلامي حول هذه المسألة لا فائدة منه ولا أساس له؛ إذ الذي لا يقدر على تقديم الآجال وتأخيرها هم الخلق لا الله تعالى الخالق.

❏ ربط تأخير الآجال بعلم الله، ثم السؤال: هل التأخير من قبله ينافي مطلق علمه؟ لا معنى له، ذلك أن «قبل، وبعد»، و«الماضي، والحاضر، والمستقبل» عند الله تعالى لا وجود لها؛ فهو سبحانه قاهر للزمان، لا يخضع لسلطانه. **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عُلُوًّا كَبِيرًا.**



## • من الفكر إلى الفعل

• أمر الله تعالى نوحا عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿أَنْ أَنْذِرُ قَوْمَكَ﴾، فجاءت الاستجابة منه مباشرة: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ غير أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أمر قومه بقوله: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ...﴾ فلم يستجيبوا بل نصبوه العداة: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا...﴾... وشتان بين الأمرين والاستجابتين.

• السؤال عن تالي كلام الله تعالى، وهو موجّه لكل واحد منّا: هل يستجيب لأمر الله، وأمر أنبيائه، أم أنه يُعرض ويكفر؟

• العلم الذي لا يثمر عملاً حريّاً به أن يسمّى جهلاً وجهالة؛ والعمل الذي لا يستند إلى علم حريّاً به أن يسمّى فساداً وضلالاً.



قال الله تعالى:

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾

### بذور المعنى

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾: كناية عن است فراغ الوُسع، واستنفاد الطاقة، وعدم التفريط في أي وقت من الأوقات لدعوتهم وإنذارهم. و﴿لَيْلًا﴾ و﴿وَنَهَارًا﴾ بالنكرة تفيدان الاستفراق، وهو عمومٌ عرفيٌّ لا حقيقيٌّ؛ أي لا يستغرق جميع الوقت، بل المراد الإكثارُ.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾: دُعائي لهم إلى الاستفراق والطاعة والتقوى لا ينفَعهم، وإنما يزدادون كبراً منهم وابتعاداً؛ وفرا راً حقيقياً بالأرجل، وفرا راً معنوياً بعدم السماع والاستجابة، وبالتمادي في الشرك والعصيان؛ إذ

كَلَّمَا دَعَاهُمْ كَذَّبُوا بِهِ فَازْدَادُوا بُعْدًا.

❏ ﴿وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾: ﴿كَلَّمَا﴾ من صيغ الشمول، وتفيد التكرار، فهو حين يدعوهم يجعلون أصابعهم في آذانهم، وحين يعود مرة أخرى لدعوتهم يعودون هم إلى فعلتهم، ولا يتوانون عن الصدود والإصرار، ولم يحدث مرّة أن تخلفوا. وهذا دليل أن كل دعوة من دعواته تقابل بنوع من الصّد، بجعل الأصابع في الآذان، أو ما يشبه ذلك.

❏ أمّا جعل الأصابع في الآذان فيمنع بلوغ الكلام، أو هو تعبير عن رفض السماع تعنتاً؛ وأطلق الأصابع عوض الأنامل مجازاً، أراد البعض وعبر عنه بالكل؛ والصيغة للمبالغة، وهم لو استطاعوا أن يجعلوا أصابعهم أو أيديهم في آذانهم - على الحقيقة - لفعلوا.

❏ ﴿وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾: أمّا جعل الثياب غشاءً على أعينهم فهو طلب عدم الإبصار؛ فهم سدّوا مسامعهم ومنعوا أبصارهم؛ والغالب في الغشاء أن يطلق على العين: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: 7].

❏ يجوز أن يكون جعل الأصابع في الآذان، والغشاء على العين على الحقيقة، وهي عادة عند قوم نوح في الصد

والإعراض والفرار من الحجّة؛ ويجوز أن تكون على المجاز، ويكون ذلك تمثيلاً لحالهم، وهي حال من يفعل ذلك. ويجوز الجمع بين الحقيقة والمجاز.

❏ ﴿وَأَصْرُوا﴾: الصّرُّ في اللغة الشدُّ على الشيء، والإصرار على الشيء تحقيق العزم على فعله، والتقدير أصروا على ما هم عليه من شركٍ وضلالٍ، وإعراضٍ وفرارٍ.

❏ ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾: الاستكبار مبالغة في التكبر، وهم قد جعلوا أنفسهم أكبر من أن يُدعوا، وأكبر من أن يغيروا دينهم وأصنامهم؛ واستكباراً مفعولٌ مطلق دلّ على تمكّن صفة الاستكبار فيهم، فهو استكبارٌ عظيم يفوق كلّ اعتبار.



## التشغيل والتفعيل

❏ الإعراض عن سماع الحجّة دليل ضعيف في المتلقّي لا دليل قوّة؛ وصيغ الإعراض في القرآن الكريم، مما حُكي عن الأقسام السابقة، وعن الكفّار في عهد نبوة سيدنا محمد ﷺ كثيرة، منها قولهم: ﴿وَالْعَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ [فصلت: 26]، ومنها التشويه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [الأحقاف: 8]، ومنها الكبر: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14].

❑ الاستكبار غالباً يكون من علية القوم، ومن المترفين؛ وهو السبب المباشر للجحود والكفر؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ [المدثر: 23]، وقال سبحانه: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: 39].



### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ من يدعو إلى الله تعالى لا يملُّ من التذكير ومن تكرر الدعوة؛ وهو لا يدري متى تحلُّ الهداية في قلب المدعو؛ وإن لم يشأ الله هدايته، كان ذلك حجةً للداعي وعلى المدعو عند الله تعالى.

❖ ترك سيدنا نوح مشاغل النهار، وراحة الليل، لأجل هداية قومه؛ ومع ذلك قابلوه بالفرار، وجازوه بالنفور؛ فهو مأجور وهم آثمون؛ والعبرة لكل من تحمل مهمة هداية الناس باديةً واضحةً.

❖ للقراءة: «فصول في الدعوة والإصلاح» علي الطنطاوي. و«سلسلة مدرسة الدعاة» عبد الله ناصح علوان.



قال الله تعالى:

ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ  
إِسْرَارًا ﴿٩﴾

### بذور المعنى

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾: بعد أن عمّم نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ الأوقات التي دعاهم فيها ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾، عمّم الصيغ التي كانت الدعوة بها، وهي «جهرا وسرا»؛ فابتداءً دعاهم جهارا، وهو طبيعة أي دعوة، وصيغة كلّ دعوى؛ وجهراً بالقول أي جعله معلناً مسموعا غير مخفيٍّ؛ فدعوته عَلَيْهِ السَّلَامُ لم تكن سرا، أو خاصة لأحد دون آخر، بل كانت مُعلنةً لجميع الناس، بجميع الحالات.

﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾: وأكد الجهار بالإعلان لأنه أظهر وأقيم للحجة؛ ثم ليُضيف إليه الإسرار،



أي إني دعوتهم علناً، ودعوتهم علناً وسراً؛ ولم أترك صيغة ولا موقفاً إلا دعوتهم فيه؛ وهو عَلَيْهِ السَّلَامُ قد جهّر وقت الجهر، وأسرّ وقت الإسرار؛ ليصل إلى قلوبهم، وليتمكّن من نفوسهم؛ والتصريف في الدعوة من شيم الحكماء، أمّا الجمود على صيغة واحدة فدليل إفلاس.

وتكرار ﴿إِنِّي﴾ تفيد أنه لم يجعل بينه وبينهم واسطة، وإنما تكفّل بالدعوة هو، حتى يقيم عليهم الحجّة، ويُلزمهم بالدليل، ويكون لهم أسوةً وقدوةً، فلا يجدوا عذراً حين يُعرضون عنه ويكذّبوه.



## التشغيل والتفعيل

تحويل الآيتان من أسرار الدعوة، ما يجعل المسلم يتوقّف فيهما؛ بخاصّة في الإخلاص والإصرار، والصبر وعدم الضجر؛ ذلك أنّ هذه الحالات، وقبلها تلك الأوقات؛ ليس لعام أو عامين، ولكن لمئات السنين؛ وفيها تثبيت لرسول الله ﷺ حين يكذّبه قومه، ولجميع من بعده، ممن يتحمّل مهمة الدعوة إلى الحقّ.

في البحث عن «الفرق بين الجهر والإعلان» في قوله تعالى ﴿دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾، و﴿أَعْلَنْتُ لَهُمْ﴾؛ تعدّدت التفسيرات

والتوجيهات، منها ما اعتبرهما مترادفين، ومنها ما جعل الجهر أعمّ من الإعلان؛ وفي لسان العرب: «الإعلان خلاف الكتمان، وهو إظهار المعنى للنفس، ولا يقتضي رفع الصوت به، والجهر يقتضي رفع الصوت به، ومنه يقال رجل جهير وجهوري إذا كان رفيع الصوت».

❖ ﴿ثُمَّ﴾ تَكَرَّرَتْ فِي الْآيَةِ، وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى تَرَاحِي مَرَاتِبِ الدَّعْوَةِ وَتَنَوُّعِهَا زَمَانًا، وَرَتَبَةً؛ فَالْجَهَارُ أَغْلَظُ مِنَ الْإِسْرَارِ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ الْجَهَارِ وَالْإِسْرَارِ أَشَدُّ مِنَ الْجَهَارِ مَفْرَدًا.

❖ مَا دَلَالَةُ الْمَفْعُولِ الْمَطْلُوقِ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾؟ وَمَا مَوْدَّاهُ الْعِلْمِيُّ وَالْعَمَلِيُّ؟ سَوْأَلٌ جَدِيرٌ فِي حَقْلِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.



### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ تنوع سبل الخطاب والدعوة، ووسائله، وأوقاته، ومدخله... ممَّا يُستفاد من الآية؛ فينبغي أن لا يُقتصر على شكل واحد؛ والناس تختلف اختلافًا كثيرًا في أساليب اقتناعها.

❖ من وسائل إعلان الدعوة في عصرنا: التلفاز، والأترنت، ووسائل التواصل... ولذا وجب على المسلمين أن لا يغفلوا عنها، وأن يتحكموا في الدعوة إلى الله من خلالها؛ حتى لا توظَّف في تشويه صورة الإسلام.

❖ لا يجوز للمسلمين أن يُعرضوا عن الوسائل الأساسية: المسجد، والدرس، والتعليم...

❖ للقراءة: «دعاة لا قضاة» للمستشار حسين الهضيبي.



قال الله تعالى:

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ عَقَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ  
عَلَيْكُمْ مَدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ  
جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾

### بذور المعنى

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾: هو جوابُ بقاءِ التفرُّيع، للآيةِ السابقة؛ أي أني قلت لهم ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهراً: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾.

﴿إِنَّهُ كَانَ عَقَّارًا﴾ بشرهم أن الله تعالى كثير الغفران، سريع المغفرة، يحبُّ أن يتوبَ إليه عبده، فلا حرج عليهم لو أقبلوا عليه، وإنه ليغفر لهم ذنوبهم مهما بلغت، ومهما كبرت؛ «لا كبيرة مع الاستغفار، كما أنه لا صغيرة مع الإصرار». قال تعالى مادحا نفسه سبحانه: ﴿وَإِنِّي لَعَقَّارٌ لِّمَن تَابَ وَعَآمَنَ

وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿[طه:82].

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾: ولو أنهم استغفروا، فإنَّ لهم جائزة ومنحة فوق منحة الغفران، وهو أن ينزل الله عليهم المطر غزيرا مرسلًا، وهم كانوا أهل فلاحه، فيفوزوا بخيري الدنيا والآخرة؛ والإنسان مجبول على محبة الخيرات العاجلة، فوعدهم تعالى بخمسة منافع من منافع الدنيا.

السماء معناها: المطر، أو السحاب. والماء المدرار: الغزير الكثير الصبِّ والدُّرور، النافع الذي لا يعقبه إضرارٌ. وصيغة مفعال يستوي فيها المذكر والمؤنث؛ فيقال رجل وامرأة مفضل أو معطار.

﴿وَيُمِدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾: المال عامٌّ لكلِّ ما يملكه الفرد، أو تملكه الجماعة من متاع، أو عروض تجارة، أو عقار، أو نقود، أو حيوان؛ وهو ما يتموّل به ويكتسبه المرء ويقتنيه.

والإمداد هو الزيادة المطردة والبسط؛ و﴿وَبَنِينَ﴾ أي ذرية تكون لكم مددًا وسندًا، من ذكور وإناث.

﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾: الجنة هي الحديقة ذات النخل والشجر، وهي التي تروى بالماء المدرار، ويعتنى بها بالمال ويسواعد البنين؛ وهي من مظاهر اكتمال النعمة على

صاحبها. ويجوز أن يراد جنات عديدة، بعضها في الدنيا وبعضها في الآخرة.

❏ ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾: كثرة المياه والأنهار سببٌ لدوام الجنة، ولنمو شجرها، ونضج ثمرها وكثرتها؛ ولهذا وصفت الجنة في الآخرة بأنها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، و﴿تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾.



### التشغيل والتفعيل

❏ لقد حبس الله تعالى عن قوم نوح المطر، وأعقَمَ أرحام نساءهم، وقتًا طويلاً، قيل أربعين سنة، فنالهم ضيقٌ شديدٌ، ورجعوا إلى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأمرهم بالاستغفار لله الذي قبض عنهم القطر، وهو وحده القادر على أن يرسل السماء عليهم مدراراً.

❏ أطال سيدنا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في الترغيب، وتفنن فيه؛ رغم أنهم استعجلوه بالكفران والعصيان؛ كرمًا منه، وإمعاناً في أداء رسالة الله تعالى، وحرصاً على هدايتهم، وعلى نجاتهم؛ فإنه أعلم بمدى العذاب الذي يحيق بهم لو عصوه وعصوا أمر ربهم.

❏ خرج سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يستسقي فما زاد على الاستغفار،

فَقِيلَ لَهُ: مَا رَأَيْتَ اسْتَسْقَيْتَ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ اسْتَسْقَيْتَ بِمَجَادِيحِ السَّمَاءِ». أَيِ اسْتَسْقَاءِ عَظِيمًا لَا يَخْطِئُ.

❏ اللَّهُ تَعَالَى مُوصُوفٌ بِالْغُفْرَانِ سِوَاءِ اسْتِغْفَرِ لَهُ النَّاسُ أَمْ لَمْ يَسْتَغْفِرُوا، وَسِوَاءِ وُجْدِ الْمُسْتَغْفِرِ لَهُ أَمْ لَمْ يَوْجَدْ؛ فَصَفَةُ الْمَغْفِرَةِ فِي حَقِّهِ سَبْحَانَهُ لَيْسَتْ حَادِثَةً، وَإِنَّمَا هِيَ قَدِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ، قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ، وَهِيَ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ، فَهِيَ أَبَدِيَّةٌ.



### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ أكثر الناس ذنوبا أقلهم استغفاراً، وأكثرهم استغفاراً أقلهم ذنوبا.

❖ عن الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رجلاً شكَا إليه الجذب، فقال: استغفر الله. وشكَا إليه آخِرُ الفجر، فقال: استغفر الله. وآخِرُ قَلَّةِ النسل، وآخِرُ قلة ريع أَرْضِهِ؛ فأمرهم كُلَّهُم بالاستغفار. فقال له بعض القوم: أتاك رجال يشكون إليك أنواعاً من الحاجة، فأمرتهم كُلَّهُم بالاستغفار! فتلا له الآية.

❖ للقراءة: «قناطر الخيرات» إسماعيل بن موسى الجيطالي؛ و«إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» ابن قيم الجوزية.



قال الله تعالى:

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ وَأَطْوَارًا ﴿١٤﴾

### بذور المعنى

❏ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾: هو استفهامٌ إنكاريٌّ، وقد ثبت لديه عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُمْ لَا يَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا. والوقار من العظمة اسمٌ من التوقير أي التعظيم.

❏ الرجاء ضدَّ الخوف، وهو الظنُّ الحسن بما فيه مسرَّة، قال صاحب الكشَّاف: «ما لكم لا تأملون لله توقيرا أي تعظيمًا».

❏ أي مالكم لا تخافون الله، ولا تعظَّمونه كما ينبغي، أو مالكم لا تؤمنون؟ وقد عبَّر عن الإيمان بهذه الصيغة. وفي سورة الحج: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الحج:74]، فمن قدر الله

حَقَّ قدره آمن به ولا ريب، ومن آمن به امثله أوامره وأطاع  
أنبياءه ولا شك.

❏ ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾: أطوارُ الخلق ذكرت في غير هذه  
الآية: تراب، ثم نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم جنين، ثم  
طفل، ثم شاب، ثم كهل، ثم شيخ.

❏ ومن المنكر أنكم لا تعتبرون بهذا، ولا تؤمنون بمن هو  
سبب وجودكم، وهو في كل طور من هذه الأطوار قد  
حفظكم، ورعاكم، ورزقكم، وشفاكم، وعلمكم، ويسر  
لكم من أسباب العيش ما به تسعدون، ومن أسباب الراحة  
ما فيه تسرحون وتمرحون؛ ثم مع ذلك تكفرون.



### التشغيل والتفعيل

❏ ﴿وَقَارًا﴾: صيغة النكرة للدلالة على أن قليلا من التوقير  
والاحترام لم يصدر منهم في حق الله تعالى؛ ثم إن الوقار  
- كما يفيد السياق - يأتي بعد الاستغفار غالبًا، أو هو ثمرة  
له.

❏ فسّر البعض الرجاء بمعنى الخوف؛ إلا أن الرازي اعترض،  
وقال: «الرجاء ضد الخوف في اللغة المتواترة الظاهرة» ثم  
بيّن أننا لو قبلنا أن يكون معنى الشيء ضده، لكان قدحًا في

القرآن الكريم، ولجاز أن نجعل كلّ لفظ في القرآن «نفيه إثباتاً، وإثباته نفياً».

❑ عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ عَرَّفَ التَّقْوَى بِقَوْلِهِ: «التقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل».



### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ كان رسول الله ﷺ قلما يقوم من مجلس حتى يدعو الله بهذا الدعاء: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهَوِّن به علينا مُصِيبَاتِ الدنْيَا...» الحديث.

❖ للمطالعة: مؤلفات ومقالات عالم الأجنة الكندي كيث مور؛ و«مراحل الحمل والتصرفات الطبية الحديثة في الجنين» باحمد ارفيس. و«الخوف من الله وأحوال أهله» مجدي السيد محمد.



قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿15﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿16﴾﴾

### بذور المعنى

- ❏ ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾: إمَّا أَنْ قوم نوح كانوا يعلمون أَنَّ السماوات السبع خُلِقْنَ طِبَاقًا، فيكون خطاب سيدنا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مَوْجَّهًا إِلَيْهِمْ؛ أو أن يكون الخطاب لقارئ القرآن الكريم، على سبيل التعليم.
- ❏ و﴿طِبَاقًا﴾ معناه: بعضُها فوق بعض بينهنَّ خلاء، أو متطابقة بعضُها فوق بعض، والتطابق أن تجعل الشيء فوق آخر بقدره.
- ❏ والرؤية هنا في ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ بمعنى العلم، أي: ألم تعلموا؟

أي أنهم كانوا يعلمون، ولكن لم يُفدهم علمهم ذلك.

❏ ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾: نور القمر مكتسب من الشمس، وهو منور للأرض، ولا أحد من الخلق يُنكر فضله على سكّانها، وأثره على حركة المياه، وعلى الزرع، وعلى سائر أحوال الحياة.

❏ ﴿فِيهِنَّ﴾ في حرف جرّ، وهنّ ضمير منفصل يعود على السماوات؛ أي في حيز السماوات؛ ولعلّ في كلّ سماء قمراً، أو أقماراً؛ وهذا حسب تفسير السماء، وهو تفسير مختلف جداً، وليس محلّ اتفاق بين العلماء.

❏ ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾: ضوء الشمس ذاتيٌّ، وهو من نارها، ومن آثار احتراقها؛ فهي بالتالي سراجٌ ومصباحٌ زاهرٌ مُسرجٌ، وأصل السراج كما هو في عادة العرب: مصباحٌ زيتٌ مكوّنٌ من إناء في وسطه فتيلةٌ تضيء. واستعير للشمس لتقريب الفهم، ولا ريب أنّ في هذا التشبيه من الإعجاز ما هو في حاجة إلى بحوث مستفيضة.



## التشغيل والتفعيل

❏ الآيات داعية إلى النظر في الكون، وفي السماوات

والأرض، والشمس والقمر؛ ودالة أن من أحسن النظر  
والعلم بما فيها قدر الله خالقها حق قدره، ورجا الله وقارا،  
وأحسن الظن به، فيحسن بذلك إيمانه، ويستقيم أمره..

❏ فتنة هذا العصر قارئ للقرآن معرض عن الأكوان، وناظر في  
الأكوان جاحد للقرآن.

❏ تارة يبدأ الله تعالى بآيات الآفاق ثم يتبعها بآيات الأنفس،  
وتارة يبدأ بآيات الأنفس ويعقبها بآيات الكون والآفاق؛  
وذلك حسب السياق، وحسب المخاطب. قال تعالى:  
﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾  
[الذاريات: 21-22]، وقال: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي  
أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ ءَأَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: 53].



### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ من أعظم العبادات النظرُ في بديع خلق الله تعالى من آيات دالّة على عظيم شأنه، سبحانه. والتفريطُ في عبادة النظر إخلالٌ بركن من أركان الإيمان، وإعراض عن رسالة القرآن.

❖ لا يحتوي القرآن على حقائق علمية جاهزة إلا نادراً، ولكنه يحتوي على موقف جديد من العلم، لم يُسبق إليه في أي دين من الأديان السماوية: ليس في القرآن تعارض بين العلم والدين.

❖ للقراءة: «الإسلام بين الشرق والغرب» علي عزت بيجوفيتش، بخاصة فصل: دين يتجه نحو الطبيعة.



قال الله تعالى:

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا  
وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾

### بذور المعنى

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾: الله تعالى خلق الإنسان من عناصر الأرض، فكان خلقه مثل إنبات النبات: من ماءٍ وطين، ومن عناصر أرضية بها يتغذى وبها ينمو، ثم بها يولد الولد ويتدبره؛ فالأمر على حقيقته لا على المجاز.

وقد يكون المعنى أنبت أباكم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من الأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59]؛ أو خلق كل إنسان من تراب، ثم من نطفة... كما قال تعالى من قبل: ﴿خَلَقَكُمْ وَأَطْوَارًا﴾، وطور التراب أول الأَطْوَارِ، وهو آخرها: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا

﴿نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: 55].

﴿نَبَاتًا﴾ مفعول مطلق، وكان من المتوقع أن يقال: أنبتكم إنباتا؛ فعدّل عنه إلى نباتا؛ أي أنبتكم فنبتم نباتا عجيبيًا؛ ذلك أننا نرى ونحسّ ونعرف النبات وأنه عجيبٌ، أمّا الخلق فلا نعرفه ولا نراه إلاّ ما جاءنا بالسمّاع، ومن طريق الوحي.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾: حين يحلُّ أجل أيّ إنسان يعود إلى الأرض بأن يُقبر فيها، ثم تتحلّل أجزاؤه فتعود إلى الأرض لتغذي نباتها وحشراتنا وحيواناتها، وربما إنسانها؛ بهذا يعود الإنسان إلى ما كان عليه أوّل مرّة.

﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾: يخرجكم للحساب والنشور، فلا يبقى أحدٌ على ظهر الأرض، ولا يتحوّل إلى تراب أبديّ، وإنما له يومٌ يُرجع فيه إلى ربه، ويقف فيه بين يديه سبحانه، قال تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: 7]، والكفار يتعجبون ويقولون: ﴿أَذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ إِنَّآ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، ثم يعقب الله تعالى عليهم بقوله: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة: 10].

وتوظيف المفعول المطلق «إخراجا» للتذكير أنّ ذلك محقّق لا ريب.



عناصر الحضارة عند مالك بن نبي ثلاثة هي: الإنسان ❏  
 والوقت والتراب؛ ولقد عدل عن مصطلح «المادة» إلى  
 مصطلح التراب؛ وعلل ذلك بأن مفهوم المادة أخذ أبعاداً  
 فلسفية حديثة، وتولدت الفلسفة المادية في مقابل الفلسفة  
 الروحية؛ أما التراب فيعني به كل ما سوى الروح والمعنى،  
 مما هو واقع في خدمة الإنسان، ومما هو سبب من أسباب  
 وجوده وبقائه.

يقول الإمام الرازي: «هذا المقام مقام الاستدلال على ❏  
 كمال قدرة الله تعالى، فلا يمكن إثباته بالسمع»، أي إن دليله  
 عقلي حسي؛ فناسب الاستدلال بالنبات الذي ندرك مدى  
 عجبه وعظمة خلق الله تعالى له؛ غير أن إلغاء السمع كليّة  
 لا يليق، وإنما هو استدلال بالعقل والسمع، حسب السياق  
 والمخاطب.

ما دام الله تعالى قادراً على الخلق ابتداءً، فهو قادر على ❏  
 الخلق إعادة: ﴿إِنَّهُ وَيَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس:4]، ﴿قُلْ  
 سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ  
 الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت:20].



### • من الفكر إلى الفعل

• من أعظم العبادات النظر في خلق الله تعالى بعين اليقين والإيمان، لا بعين الشك والجحود؛ شتان بين نظرة مادية إلحادية جاحدة، ونظرة علمية إنسانية صادقة.

• مثل هذه الآيات، ومثل هذه المناهج في الاستدلال، مما يفتقده المنهج التربوي في العالم الإسلامي غالباً، وفي جميع الأطوار والمراحل؛ مما أبعد المسلم عن روح الإسلام، وعن حقيقة القرآن؛ ثم عن فهم الكون والغوص في أسرارهِ.

• للقراءة: «دليل الحائرين: خريطة معرفية لقراءة ونقد المذهب العلموي والمادي» إرنست شوماخر.



قال الله تعالى:

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بَسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا  
فِجَاجًا ﴿٢٠﴾



### بذور المعنى

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بَسَاطًا﴾: الله تعالى خلق الأرض وثبتها بالجبال الرواسي، ثم ذللها للبشر، وجعلها لهم مثل البساط، وسلك فيها سبلاً وفجاجاً؛ فأمر بالضرب فيها، والسير على مناكبها، وابتغاء فضل الله تعالى بما أودع فيها من خيرات. وقد عبّر عن معنى البساط في آية أخرى بقوله جَلَّالَهُ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبا:6]، ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:20].

﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾: السبيل هو الطريق، والفجاج جمع فجّ وهو الطريق الواسع البعيد، أو هو الطريق بين

جبلين؛ وبسط الأرض مكن الناس أن يخطوا أزقة، وطرقاً، وسككا؛ بل إذا اعتبرنا الغلاف الجوي من الأرض، قد سلك الإنسان فيه سبلا فجاجا للطائرات والأقمار وغيرها من وسائل النقل القديمة والحديثة والمستقبلية.

❏ ﴿مِنْهَا﴾ قال البعض: أي «فيها»، على اعتبار حروف الجرّ ينوب بعضها عن بعض؛ إلا أن ﴿مِنْهَا﴾ تحمل معنى إضافياً وهو كون السبل والطرق منطلقها الأرض، ومادة خطها وسلكتها من الأرض لا من غيرها، وأنها نقطة المرجع والمرتكز؛ فلها معان كثيرة وبديعة.



### التشغيل والتفعيل

❏ الخالق المنعم يخاطب مخلوقه بلطف ورحمة: ﴿لَكُمْ﴾، ﴿لَتَسْلُكُوا﴾؛ ثم يدعو إلى الإيمان والتسليم؛ ومع ذلك يجراً هذا الإنسان على الجحود، وعلى الكذب على الله؛ ثم اللّه سبحانه يحاججه ويسوق له الدليل تلو الدليل؛ ويرسل الرسل ومعهم الوحي، فيه الحجة والبرهان... ومع ذلك، سيبقى على الأرض كفّار ومشركون، وسيمهلهم الله تعالى، ولو شاء لقهروهم ولحملهم على الإيمان. مثل هذا المعنى في حاجة إلى بحوث من مداخل علمية كثيرة، ولا ريب أن العلماء سبقوا في الاهتمام به، ولكنه مجال لا حصر له ولا آخر.

### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ الإنسان مخيرٌ أن يؤمن أو لا يؤمن، أن يأخذ بالدليل أو يتنكر له؛ في حرية مطلقة، هي التي تحمّله المسؤولية كاملة غير منقوصة.

❖ في الآيات أمر بالحركة فوق الأرض، وبسلوك السبل الفجاج، وهو نهْيٌ صريحٌ عن الخمول والسكون والتخلف.

❖ المنظومة المادية المتوحشة تستهلك كلَّ خيرات الأرض، وتنشر الفساد فيها، بلا رقيب ولا حسيب؛ ذلك أن المرجع قد فُسد، وصار الإنسان هو واضع المعايير، وصار مرجع نفسه. لا بد من التعمق في دراسة هذا الانحراف الفلسفي والحضاري الخطير، ثم مواجهته ببدائل قرآنية إيمانية ناجعة.

❖ للقراءة: «سدهار تا» رواية هرمان هيسه. و«لماذا انتصر العلم المزيف» خالد منتصر.



قال الله تعالى:

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا  
خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكْرُوهًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾

### بذور المعنى

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾: أظهرت الآية لفظ ﴿نوح﴾ لبعد الضمير، وقد اشتكى لربه فقال: إنهم عصوني، وقصد به مجمل قومه، أو المتبوعين من عامة الناس الذين لا رأي لهم بل هم قوم تبع؛ والله تعالى أعلم بهم منه، وإنما هو في مقام الحسرة والاعتذار واليأس منهم.

﴿وَأَطِيعُونَ﴾، وهو قد أمرهم بأمر ثلاثة، وهم قد عصوه فيها جميعا: فلم يعبدوا الله بل أشركوا به آلهتهم، ثم لم يتقوه بل تجرؤوا عليه وكانوا أظلم وأطغى، ثم هم كذبوه وكذبوا

الرسَل؛ فكان ذلك سبباً لهلاكهم.

❏ ﴿وَاتَّبِعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾: هذا سبب عصيانهم؛ ذلك أنهم اتبعوا المتترفين منهم، أصحاب الأموال والأولاد والشأن والمناصب والمقدمين منهم. وهؤلاء الكبراء لا يزيدهم مالهم وولدهم إلاّ ضلّالا وغرورا، وإعراضا وخسارا.

❏ واتباع الأكابر على ضلالهم انحرافٌ عامٌّ في كلّ الأمم؛ لذلك سيأتي الجدل بين ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ و﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ يوم القيامة؛ وهو ظلم وضلّال لا يزال ولن يزال إلى يوم الدين؛ إذ كثير من الفساد والشرك مرده إلى «الاتباع»، وإلى «المصلحة».

❏ ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا كُبْرًا﴾: المكر هو الخداع وإلحاق الضرر باستعمال الحيلة وصرف الفعل إلى غيره، مع إخفاء ما به يتمّ المكر؛ ولقد كان مكرهم لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مبالغاً فيه أشدّ المبالغة، ولقد وُصِفَ بأنه ﴿كُبْرًا﴾، ومثله بصيغة فُعَال للمبالغة: ﴿عُجَابٌ﴾ أي شديد العجب.

❏ ومن مكرهم به تخطيطهم لقتله والكيد منه، ولعلّ منه كذلك تحريش أهله وزوجه وابنه عليه، وهذا من أشدّ أنواع الأذى ألمّا، ولكنّ أبلغ المكر إعراضهم عن الحقّ وعن

الله تعالى، ومغالطة الناس، بدعوتهم إلى عدم اتباع هدي النبوة، وعبادة آلهتهم وُدًّا وسواعا، ويغوث ويعوق ونسراً.



## التشغيل والتفعيل

❏ زاد المتبوعون من كبراء قوم نوح إلى ضلالهم إضلالاً للناس وخداعهم، والكيد والمكر بالأنبياء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16] ولذا جاءت شكوى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ اعتذاراً إلى الله سبحانه، وإيداناً منه أن الأمر بيد الله في إهلاكهم الهلاك الشديد، وأخذهم الأخذ العزيز.

❏ سمع أعرابيُّ قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا كِبَارًا﴾ فقال: «ما أفصح ربك يا محمد». وهو لا يدري أن الله تعالى لا يوصف بالفصاحة والبلاغة، وإنما كلامه يقال عنه فصيحٌ وبلغٌ، باعتبار قياسه عند العرب.

❏ عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال»، وفي حديث «وقهر الرجال». فغلبة الرجال تكون في المال وفي غيره، وأكبر قهرٍ هو أن يُقهر المرء على الكفر، ثم يكفر. أمَّا من قُهر

فصبر على الإيمان فهو من المؤمنين الصادقين.  
الاستعمار هو أعظم شكل من أشكال القهر في عصرنا،  
وأشدُّ منه بلاءً «القابلية للاستعمار»، وكذا ظلم السلطان  
لرعيته، وخيانتة لمبادئ أمته ودينه ووطنه؛ وما أكثر هذا في  
عالم المسلمين اليوم.



### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ لا شكوى إلا لله، ولذا شكى نوح لربه سبحانه ظلم قومه ومكرهم. بل الشكوى لله واجب مأمور بها، فإنه هو المفرج، وبيده مقاليد الأمور كلها.

❖ لا إيمان إلا مع الحرية في الاختيار، ومع تحمّل المسؤولية كاملة؛ فإنّ إنسانية الإنسان لن تتحقق إلا بالحرية والمسؤولية؛ ولذا يتحمّل كل إنسان يوم القيامة نتيجة خياراته كاملة، ولا يتحملها أحد سواه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ﴾.

❖ إذا ابتلي الإنسان بغلبة الرجال وقهرهم، وتسلبهم عليه، بحق أو بغير حق: كان ذلك سببا في شقائه، ومدعاةً لصبرٍ شديد، قد لا يتحمّله إلا الكمّل من الناس.

❖ للقراءة: «بوبال»، و«ميمونة»، و«اليربوع الأزرق» ثلاث روايات في تشريح أضرب من القهر المعاصر، محمد باباعمي.





قال الله تعالى:

وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ  
وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا  
ضَلَالًا ﴿٢٤﴾



### بذور المعنى

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾: هذا قول الأَكابر الماكِرِين في مقام الحِجَّة، قالوه للمغفَلِين من عامَّة الناس: لا تتركوا آلِهتكم، وتعبدوا إلها غيرها، مما لا تعرفون، ولا يُنسب إليكم. وهذا مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 23].

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾: ودٌ وسُوَاعٌ أسماء لآلهة يعبدها قوم نوح؛ وعن شكلها وأصلها ومن اتخذها معبودا له، وهل كانت أسماء لرجال صالحين ثم ماتوا، ثم اتخذوا آلهة؟ كلُّ

هذه التفاصيل مما لم يرد في القرآن الكريم، ولا في سنة صحيحة، ولا في خبر تاريخيٍّ محققٍ؛ ولكن يكفي أن نعرف أن النهي جاء من الأكابر أن لا يتركوا عبادتها، تماما مثلما كان الأمر مع «اللات والعزى ومناة» وغيرها من الآلهة.

❏ وقيل انتقلت عبادة هذه الأصنام للعرب، فكان ود على صورة رجل لكلب، وسواع على صورة امرأة؛ ونحن لا نقبل ولا نرفض الخبر، وإنما نكتفي بدائرة الوقوف.

❏ ﴿وَلَا يَعْوَتُ وَيَعُوقُ وَنَسْرًا﴾: ويعوث كان على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسرا على صورة نسر؛ كما قيل. واعتبارها بهذه الصور يناقض كونها أسماء لرجال صالحين ماتوا ثم عبدوا. ولا دليل يرجح معنى من المعاني على غيره، وإنما يكفي أن نعلم أنها كانت معبوداتٍ لهم من دون الله، وهذا محلُّ العبرة، ولبُّ القصة.

❏ ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾: وقد أضلَّ هؤلاء الكبراء من أتبعهم من الناس، فحملوهم على عبادة هذه الأصنام، وقهروهم على ترك اتباع الحق الذي جاء من الله تعالى.

❏ ووصف الضلال بالكثير، لكونهم تفننوا فيه، ما بين ضلال شرك وجحود، وكفر وفسوق، وظلم وجور... نسأل الله أن يرفع عنا الضلال قليله وكثيره.



﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾: حين يئس نوح عليه السلام من هداية قومه دعا الله تعالى أن لا يزيدهم إلا ضلالاً. ولم يكن منه هذا الدعاء إلا حين أعلمه الله تعالى أنه ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ-أَمَنَ﴾ [هود:36]. أو أن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ دعا قبل ذلك وقد أيسس منهم، ثم تأكد ذلك من الله تعالى.



### التشغيل والتفعيل

﴿وصف الضلال في القرآن الكريم بجملته من الصفات، استقباحاً له واستعظاماً، منها: ضلال مبين، وضلال كبير، وضلال بعيد، وضلال قديم. لا يقال في حق الأنبياء والرسل عليهم السلام: «أخطؤوا» بخاصة فيما هو من أمور الدين؛ ولكن يقال: «ارتكبوا خلاف الأولى» ولا يكون ذلك إلا فيما ليس أصلاً من أصول الدين الذي جاؤوا به.



### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ لا عذر لمن قلّد في التوحيد والعقيدة؛ والمأمور به شرعا هو إعمال الفكر، والاجتهاد، والإخلاص في استبيان الحق.

❖ لما اشتغلنا بالجدال داخل دائرة الإسلام، ضعفت جبهتنا عن مجادلة المشركين، والملحدين، والمرجفين ممن يُنسب إلى الإسلام. وبهذا صدق ظنهم فينا، ثم نلنا الخزي والمذلة على أيديهم.

❖ للقراءة: «الحقيقة الإلهية: الله... والإسلام... وسراب الإلحاد» حمزة أندرياس تزورتزس.





قال الله تعالى:

مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ  
مَنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾



### بذور المعنى

﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾: هي جملة معترضة تتوسّط كلام سيدنا نوح ودعاءه مما سبق ومما هو لاحق؛ وهو إخبارٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ بأنه قدّر النصر لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والهلاك لقومه؛ وهو إخبارٌ لتالي القرآن الكريم أن العلاقة بين الخطيئات والهلاك لا بدّ من تحقّقها، في الدنيا وفي الآخرة.

﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ﴾ أي من أجل ذنوبهم ومعاصيهم الكثيرة، فإنّ الله تعالى أغرقهم كما أخبر في سور أخرى عن قوم آخريّن، فأدخلهم نار جهنم يوم الجزاء والحساب.

قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿كَذَّابٍ ءَالٍ فِزْعُونَ وَالَّذِينَ  
مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ  
الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: 11].

❏ ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾: كما أن هؤلاء المهلكين  
لم يجدوا لأنفسهم أنصارا، فإنَّ من يكذِّبُك يا محمد لا يجد  
له ناصرًا من دون الله تعالى.

❏ إِنَّ الْأَصْنَامَ الَّتِي عِبَدَهَا قَوْمُ نُوحٍ لَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا،  
ولم تنصرهم يوم البعث؛ فكذلك الأصنام التي يعبدها  
المكذِّبون من كفار قريش، ومن بعدهم من المكذبين إلى  
يوم الدين، لن تكون لهم شافعا ولا نصيرا عند الله تعالى،  
إلى يوم يبعثون.



### التشغيل والتفعيل

❏ ثمة تقابل بديع بين التعذيب بالماء في الدنيا وبالنار في  
الآخرة، وكلُّ ما خلق الله تعالى يمكن أن يكون رحمة،  
ويمكن أن يتحول عذابا بأمر من الله سبحانه.

❏ وقع فيضان في بلاد المسلمين، ثم سارع بعض الناس  
إلى ربط ذلك بجملة من المعاصي، على سبيل التخويف  
والتحقيق؛ وفي بلاد أخرى للكفار، يقترف الناس معاصي

أشدَّ وأكبر، لكنَّهم يعيشون في حبوحة ورخاء، فاعتبر ذلك  
من قبيل الإمهال، على سبيل التحقيق والتعيين. أليس في  
هذا تناقض وخلل في الفهم؟



### ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة» وهي قاعدة كلية.

❖ ورد في الأثر: «وعزتي وجلالي، لا يكون عبد من عبدي على ما أحبُّ، حتى ينتقل عنه إلى ما أكره، إلاَّ انتقلتُ له مما يحبُّ إلى ما يكره. ولا يكون عبد من عبدي على ما أكره، فينتقل عنه إلى ما أحبُّ، إلاَّ انتقلتُ له مما يكره إلى ما يحبُّ».

❖ لا يجوز الإسراع في ربط العلاقة بين معصية وابتلاءٍ بالتعيين، لكن جاز ذلك بالصفة. فالزنى يورث الفقر هو حكم بالصفة لا حرج فيه، ولكن: فلان فقير لأنه زانٍ مثلاً؛ هذا بالتعيين، لا يجوز، لعله تاب فتاب الله عليه، ولعل الفقير في حقه ليس عقاباً ولكنه رحمة.



قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿26﴾  
 إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فٰجِرًا كَفَّارًا ﴿27﴾﴾

### بذور المعنى

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾: ديارا بمعنى أحدا، ولا تستعمل إلا في النفي، فيقال: ما بالديار ديار. ولا تستعمل في الإثبات.

دعاء سيدنا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه أن لا يترك أحدا من الكفار فوق الأرض، وأن يبيدهم جميعا، ولا يغادر منهم أحدا. ولقد استجاب الله تعالى لدعائه، فأهلك من على الأرض، ففي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: 64].

❏ وقد يراد بالأرض جميعَ الكرة الأرضية، أو الأرض المعهودةَ لقوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قال تعالى على لسان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: 55] أي مصر لا الأرض جميعها.

❏ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾: ما دام منطق هؤلاء الضالين المضلين أنهم كذبوا الرسل، وأقنعوا الناس واستمالوهم إلى الضلال والتكذيب بما يملكون من مالٍ ونفوذ، وسلطانٍ ومغالطةٍ تنطلي على الناس عادة، لضعف مداركهم، وقصور فهمهم؛ ما دام المنطق كذلك، فإنَّهم إن بقوا على الأرض، فسوف يُضِلُّون من بعدهم من عباد الله.

❏ ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاَجْرًا كُفَّارًا﴾: ثم إنهم إذا ولدوا لن يلدوا من يعبد الله، ومن يكون أحسن منهم؛ بل سيلدون فُجارا وكُفارا أمثالهم؛ وسيربونهم وينشئونهم على الكفران والفجور. وقد كان الواحد منهم يأتي بولده إلى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ويقول: «لا تؤمن بهذا، فإنَّ أبي قد أوصاني بأن لا أؤمن به، ونشأوا على ذلك موصَّى بعد موصٍ».

❏ لم يدعُ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه إلاَّ بعد خروج جميع من آمن من أصلا بهم كما في الأثر.



❏ يصوغ بعض الناس شكوكا على مسألة دعاء نوح على قومه، وعلى كون الأطفال والأبرياء من بينهم، فكيف يجوز له أن يدعو عليهم؟ والحقُّ أنَّ الإنسان مهما بدا حريصا على الحقِّ وعلى العدل، فإنَّ الله تعالى هو الحقُّ، وهو العدلُ؛ ثم إنَّ الواحد إذا أشكل عليه أمرٌ من القضاء والقدر، وجب عليه ابتداءً تحديدا المنطلق: هل يؤمن أنَّ الله تعالى مطلق العلم، والقدرة، والرحمة... أم لا؟ فإن كان شاكًّا، فالجدال يكون مختلفا عنه إذا ما كان مؤمنا.

❏ للخروج من الإشكال ذكر بعض المفسرين أنَّ قوم نوح مُنعوا القطر وتوقَّف النسل عندهم، فلم يكن بينهم صبيٌّ حين أهلكوا. واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي ما لم تستغفروا فلن يمددكم بنين، وهو توجيه حسن.



## ❖ من الفكر إلى الفعل

- ❖ من دعاء نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يُسْتَفَادُ أَنَّ المصلح لا يهتمُّ فقط بجيله، بل يجعل في الحسبان الأجيال المتلاحقة جيلا بعد جيل.
- ❖ لا يُدْعَى على أحدٍ ظالما كان أو متعديا إلا بعد استنفاد كل أسباب الصبر والعفو؛ وإن تمادى جاز الدعاء عليه، ولا حرج في ذلك.
- ❖ تكتمل إنسانية الإنسان بالحب والقوة، والادعاء أَنَّ الحَبَّ هو المرجع الوحيد لِخُلُقِ الإنسان وهمٌّ، وخروجٌ بالإنسان إلى طبيعة غير طبيعته. فكل فلسفة ادعت الحَبَّ وحده انتهت إلى ظلم وجور شديد، والحروب الصليبية خيرُ مثال.
- ❖ للقراءة: «هروبي إلى الحرية» علي عزت بيجوفيتش.





قال الله تعالى:

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ  
وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾



### بذور المعنى

- ❏ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾: ناجى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ، وختم مناجاته بالدعاء لنفسه ولوالديه، فابتدأ بنفسه ثم بأقرب الناس إليه أي والديه؛ ثم عمم الدعاء لمن والاهم؛ وكأنه يعلمنا صفة الدعاء وآدابه، والترتيب فيه.
- ❏ السؤال بالمغفرة سؤال بجميع الخيرات والحسنات؛ ذلك أَنَّ مَنْ غَفَرَ اللهُ لَهُ فَقَدْ رَضِيَ عَنْهُ، وقد رحمه، وقد وعده بالنجاة وبالجنة وبسائر المبررات.
- ❏ في الآيات السابقة دعا سيدنا نوح قومه إلى الاستغفار:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا...﴾ الآيات؛ ثم ابتداءً بنفسه واستغفر الله. فاللهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا.

❏ ﴿وَلَمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا﴾: أي من دخلها مؤمنًا، ومن دخلها وتابع سبيل الحق الذي دعا إليه؛ وإلا فمن دخل بيته كابنه وزوجته وهو كافر لا يدخل في عموم الدعاء، بخاصة أن الله تعالى قال له: ﴿فَلَا تَسْأَلْنَهُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود:46]. ولذلك جاء التخصيص بـ﴿مُؤْمِنًا﴾ وخرج منها من دخله وهو كافر.

❏ قيل في معنى ﴿بَيْتِي﴾: مسجدي، وسفينتي، وديني؛ فيكون من دخل هذه مؤمنًا، ولا يشمل من دخل بيته الذي يسكن فيه؛ وفي هذا التوجيه تكلف ظاهرٌ.

❏ في الآية دلالة على عهد الأمان لمن استجارك، فلبيت حرمة، ولمن دخلها حرمة وأمان.

❏ ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾: ولسائر المؤمنين والمؤمنات في عهده، ممن لم يدخل بيته؛ ولجميع المؤمنين والمؤمنات إلى يوم الدين؛ وهو دعاء شامل عامٌ جليلٌ.

❏ ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾: التبار هو الهلاك والخسار؛ والدعاء أن لا يزيد الله تعالى الكافرين إلا خسارًا على

خسارهم، وهلاكاً إلى هلاكهم؛ وقد تبين له ضلالتهم،  
وأنهم سيموتون على الفجور والكفران.

❏ بعد أن دعاهم نوح إلى الحق، وبعد أن أعرضوا، لم يزداهم  
دعاه **عَلَيْهِ السَّلَامُ** إلى فرارا. وبعدما استنفذوا أضرب النكال  
به، وأذاقوه من العذاب ما لا يحتمله أحد، شدةً وطولاً أمداً؛  
دعا عليهم بالخسار والدمار.



### التشغيل والتفعيل

❏ هذا الدعاء من أعظم الدعاء، الذي يردده المؤمن كل حين،  
لما يشمل من معان لا حصر لها.

❏ كما أجاب الله تعالى دعاء نبيه بهلاك الكفار أجابه بالغفران  
للمؤمنين؛ جعلنا الله منهم، ومتعنا ببركات هذا الدعاء.

❏ عن شداد بن أوس عن النبي **ﷺ** قال: «سيد الاستغفار أن  
تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك،  
وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما  
صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي،  
فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» [رواه البخاري].



## ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾.

❖ شرح الإكثار من الاستغفار، لقول الرسول ﷺ: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

❖ ومما ورد في الدعاء للوالدين، ما جاء في سورة إبراهيم على لسان الخليل: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَائِي (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

❖ للقراءة: «فن الذكر والدعاء» محمد الغزالي. و«قصص القرآن» محمد قطب.





## فهرس الآيات

- 17 ..... **تفسیر سورة الحاقه**
- 18 ..... ﴿الْحَاقَّةُ..... وَعَادُ بِالْفَارِعَةِ﴾
- 23 ..... ﴿فَأَمَّا تَمُودُ..... لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾
- 28 ..... ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمِنْ..... أَخَذَةَ رَأِيَةً﴾
- 32 ..... ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى..... أذُنٌ وَإِعْيَةٌ﴾
- 36 ..... ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ..... وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾
- 40 ..... ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ..... تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةً﴾
- 45 ..... ﴿فَأَمَّا مَنْ أوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ..... فِي الْآيَاتِ الْخَالِيَةِ﴾
- 49 ..... ﴿وَأَمَّا مَنْ أوتِيَ كِتَابَهُ..... عَنِّي سُلْطَانِيَةً﴾
- 53 ..... ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ..... ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾
- 57 ..... ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ..... طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾
- 61 ..... ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ..... إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾
- 65 ..... ﴿فَلَا أُفْسِمُ بِمَا... رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
- 70 ..... ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ..... أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾
- 74 ..... ﴿إِنَّهُ لَتَذْكُرَةَ لِلْمُتَّقِينَ..... بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾
- 79 ..... **تفسیر سورة المعارج**
- 80 ..... ﴿سَالِ سَائِلٌ يَعْدَابُ..... ذِي الْمَعَارِجِ﴾
- 85 ..... ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ..... وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾
- 90 ..... ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ..... يُبْصِرُونَهُمْ﴾
- 94 ..... ﴿يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي..... جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾
- 98 ..... ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَطْفٌ..... وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾
- 102 ..... ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ..... مَسَّهُ الْخَيْرُ مُنْوعًا﴾

- 106 ..... ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ..... صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾
- 109 ..... ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ ..... وَالْمَحْرُوم﴾
- 113 ..... ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمٍ ..... رَبِّهِمْ غَيْرِ مَآمُونٍ﴾
- 117 ..... ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوجِهِمْ ..... هُمْ الْعَادُونَ﴾
- 120 ..... ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ ..... جَنَّتِ مُكْرَمُونَ﴾
- 124 ..... ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا ..... خَلَقْنَاَهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾
- 129 ..... ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ ..... الَّذِي يُوعَدُونَ﴾
- 134 ..... ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ ..... كَأَنَّا يُوعَدُونَ﴾
- 139 ..... **تفسير سورة نوح**
- 140 ..... ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ .....﴾
- 144 ..... ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي ..... لَا يُؤَخِّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
- 149 ..... ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ ..... وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾
- 154 ..... ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ ..... وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾
- 158 ..... ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّيكُمْ ..... لَكُمْ أَنْهَارًا﴾
- 163 ..... ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ ..... خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾
- 167 ..... ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ..... وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾
- 171 ..... ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنْ ..... وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾
- 175 ..... ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ ..... سُبُلًا فِجَاجًا﴾
- 178 ..... ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ ..... مَكْرًا كُبَّارًا﴾
- 183 ..... ﴿وَقَالُوا لَا تَدْرُءُ الْهَتِكُمْ وَلَا ..... إِلَّا ضَلَالًا﴾
- 187 ..... ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ ..... اللَّهُ أَنْصَارًا﴾
- 191 ..... ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذُرْ ..... إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾
- 195 ..... ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَوَالِدَيَّ .....﴾